دار وحي القلم

رسالة التوحيد

المسمّى ب

تقوية الإيمان

الكتاب

رسالة التوحيد

المسمَّى بـ (تقوية الإيمان)

المؤلف

للإمام الشَّهيد إسماعيل بن عبد الغني الدِّهلَويّ

الطبعة

الأولى 2003

عدد الصفحات: 192

القياس: 17X24

الناشر

دار وحي القلم

دمشق ــ سورية

ص.ب: 30297 هاتف 93396818 (00963)

بيروت ــ لبنان ص.ب: 113/6501

هاتف: 3925886 (00961) تليفاكس: (009611653655)

أشرف على الطبع والإخراج الفني

سليم محمد دولة

للإمام الشهيد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي

(١٠٩٣ - ١٢٤٦هـ)

نقلها للعربية وقدم لها

الداعية الحكيم، المربي الجليل

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

(١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ)

(١٩١٤ - ١٩٩٩م)

إعتنى بها

سيد عبد الماجد الغوري

دمشق
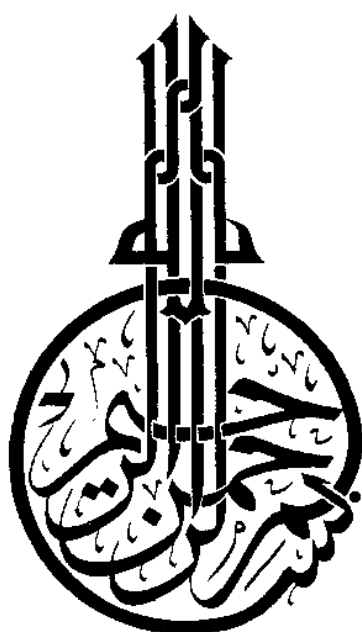
بسم الله الرحمن الرحيم

التقدمة :

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشرُّ الأمورِ محدثاتُها ، وكلُّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ ، وكل ضلالةٍ في النار .

وبعد : فقد عارض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأئمة الدِّين ، وفقهاء الأمَّة ، وجميع المجدِّدين والمُصلحين ، والعُلماء الربَّانيين مُحْدَثات زمانهم ، والبِدَع والخُرافات الناشئة فيه معارضةً عنيفةً في العصور التي عاشوا فيها ، وبذلوا قُصارى جهدهم في محاربتها ، وصرفوا كلَّ طاقتهم في الحيلولة دُون رواج هذه البدع والخرافات ، وتأثيرها في المجتمعات الإسلامية ، والأوساط الدينية ، وقد صوَّر القرآن الكريم في أسلوبه المُعجز الحكيم ما يُوجد في هذه البدع والمحدثات ـ في كلّ عصرٍ ـ من جاذبية مغناطيسية ، وما ترتبط بها من أغراض أبناء الدنيا والمحترفين بالدين ، ومصالح الفِرَق الدينية المغرضة الشخصية ، ومنافعها الذاتية ، فقال : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾[1] .

ولقي هؤلاء الأئمَّة والفقهاء ، والمُصلحون والعُلماء في سبيل ذلك من الأذى والاضطهاد ما لقوا ولكنَّهم لم يتخلَّفوا لحظةً عن عملهم في محاربة هؤلاء المبتدعين ، ولم يُبالوا بما أُوذوا بهم في سبيل الله ، واعتقدوا أن عملهم هذا جِهاد الساعة ، والمهمَّة الدينية المقدَّسة لحماية الدِّين الخالِص من التحريف والتزوير ،

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٤ .

ولصيانة الشريعة الغرَّاء من اجتهادات الجهلاء ، وقد لَقَّبَ مُخَالِفوهم من العامَّة أو الخاصَّة الذين لا يمتازون عن العامَّة في شيءٍ بألقاب تُشبه ألقاب الكفَّار من قريش للمسلمين ، كالصَّائبة ، والمَارِقَة ، وأعداء الدِّين ، ولكنَّ هؤلاء الأئمة المجدِّدين ، والعلماء المُصلحين الذين عارضوا تلك البدع والمحدثات لم يعيروا أصحابها أيَّ اهتمام ، وقضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللسانِ ، وإثبات الحقِّ ، وإبطالِ الباطل على كثير من البدع ومُحْدثات الأمور التي لا نجد لها الآن ذكراً إلا في طيَّات بعض كُتب التاريخ والسِّير ، وما بقي منها لم يزل يُكافحها العلماء الربَّانيون ، ولا يزالون يُحاربونها ، ويقضون عليها ، وصدق الله العظيم : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1] .

وكان من هؤلاء الأئمة المجدِّدين ، والعلماء المصلحين نخبةٌ مباركةٌ في شبه القارة الهندية ، والذين لهم جهود جبَّارة ومساعي محمودة في إماتة البِدع والمحدثات والخرافات ، وإحياء السنة في بعض شُعوب البلاد الهندية المُسلمة التي امتزج دين التوحيد الخالص بالعقائد الوثنية وأوهام المتصوّفة البراهمة ، وانحصر الدين في كُتب الفقه الَّتي أَلَّفها المتأخِّرون من الفقهاء ، وبلغ من تغلغل تلك العقائد الباطلة في نفوسهم ، وامتزاجها بلُحومهم ودِمائهم أن يجعلوا يتعصَّبون لها ويُدافِعون عنها دِفاع من يذبُّ عن حِمى الإسلام وشعائره ، وقد بلغوا من تمسُّكهم بعقائدهم الممزوجة بخرافات الوثنية وإيمانهم بها أن رَثى لهم العدوُّ الشامت ، وبكى للإسلام مَن لا يبكي إلا إذا استيقن أن المُنتمِين إليه قد وصلوا من الانحطاط والتقهقر بمكان لا يُرجى بعده النهوض والعود إلى سيرتهم السالفة من المَجْد والسُّؤدُد ، وإليك ما قال بهذا الصدد العالم الفرنسي الشهير ، الدكتور غوستاف لوبون (١٨٤١ ـ ١٩٣١م) : « ويظهر للباحث عند دراسة الإسلام في الهند أن هذا الدين قد مُسِخ مسخاً وشوِّه تشويهاً »[2] . « وإن حدث دين محمد ﷺ في ديانات

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣

(٢) **حضارة الهند** (الترجمة الأردوية) صفحة (٣١٠) نقلاً عن « **تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند** » للأستاذ مسعود عالم الندوي ، صفحة (١١ـ١٢) .

الهند تغييراً أو انقلاباً فقد لحقه مثل ذلك أو أكثر منه »[1] .

وهذا البُكاء للإسلام لمن لم يكن منه ديناً ولا عقيدةً ، وإليك دُموع ساخنة أخرى لمن كان منه ديناً وعقيدةً ، ظلَّ طيلة حياته مدافعاً عنهما فيما كتب غيرةً عليهما ، وثائراً على من ثار عليهما ، عُدَّ من أساطين العلم والأدب في القرن العشرين ، وهو الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٧ ـ ١٩٢٤م) ، انحدرتْ لمّا اطَّلع على ما كتب إليه أحد علماء الهنود ، يقول فيه : « إنه اطلع على مؤلَّف ظهر حديثاً بلغة (تَامِيْل)[2] ، وموضوعه : « تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني » ، وذكر مناقبه وكراماته ، فرأى فيه من الصفات والألقاب ، التي وصف بها الكاتبُ السيدَ عبد القادر ولقبه بها صفاتٍ وألقاباً هي بمقام الأُلوهية أليق منها بمقام النبوَّة ، فضلاً عن مقام الولاية كقوله « سيِّد السموات والأرض » و « النفاع الضرار » و « المتصرف في الأكوان » و « المطلع على أسرار الخليقة » ، و « محيي الموتى » و « مبرىء الأعمى والأبرص والأكمه » و « أمره من أمر الله » و « مَاحِي الذنوب » و « دافع البلاء » و « الرافع الواضع » و « صاحب الشريعة » و « صاحب الوجود التام » إلى كثير من أمثال هذه النُّعوت والألقاب !

ويقول الكاتب : إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً ، يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه : « أول ما يجب على الزائر : يتوضأ وضوءاً سابغاً ، ثم يصلِّي ركعتين بخشوع واستحضار ، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة ، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين ، أغثني وأمدني بقضاء حاجتي ، وتفريج كربتي ، أغثني يا محي الدين عبد القادر ، أغثني يا ولي عبد القادر ، أغثني يا سلطان عبد القادر ، أغثني يا بَادِشَاه[3] عبد القادر ، أغثني يا خوجة عبد القادر » .

---

(١) المصدر نفسه صفحة (٧٥٥) .

(٢) وهي لغة الهُنود الساكنين بمديريَّة « نَاقُوْر » وملحقاتها بولاية « مَدْرَاسْ » الواقعة في جنوب الهند .

(٣) بادِشَاهْ (كلمة فارسية) أي : السُّلطان ، أو المَلِك .

« يا حضرة الغوث الصَّمْداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز ، محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة » .

ويقول الكاتب أيضاً : إن في بلدة (ناقُوْر) في الهند قبراً يُسمى (شاه الحميد) ، وهو أحد أولاد السيد عبد القادر ـ كما يزعمون ـ وأن الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سُجودهم بين يدي الله ، وأن في كل بلدة من بلدان الهنود وقُراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر ، فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد ، والملجأ الذي يلجؤون في حاجاتهم وشدائدهم إليه ، وينفقون من الأموال على خَدَمَتِه وسَدَنَتِه ، وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعاً لصاروا أغنياء .

هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب ، ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيني ، فما أبصر مما حولي شيئاً ، حزناً وأسفاً على ما آلت إليه حالة الإسلام ، بين أقوام نكروه بعدما عرفوه ، ووضعوه بعدما رفعوه ، وذهبوا به مذاهب لا يعرفها ، ولا شأنَ له بها .

أيُّ عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع ، فلا تريقها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن ، منظر أولئك المسلمين ، وهم رُكَّعٌ سُجَّدٌ على عتاب قبر ، ربما كان بينهم من هو خير من ساكنه في حياته ، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته !

أيُّ قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة ، فلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكاً بالله ؛ وأوسعهم دائرةً في تعدُّد الآلهة وكثرة المعبودات[1] ! » .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليعتق رقابهم من رق العبودية ، فلا يُذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويَّهم ، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل ، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس

---

(١) نظرات ، الجزء الثاني ، صفحة (٢٧٢ ـ ٢٧٣) .

المسلمين في العصور الأولى ، فكانوا ذوي أنفة وعزة ، وإباء وغيرة ، يضربون على يد الظالم إذا ظلم ، ويقول للسلطان إذا جاوز حدَّه : قِف مكانك ، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك ، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود ، واعلم أنَّه لا إله إلا الله .

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت رقابهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضرعت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا إلى المنزلة الدنيا ، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ، ومواطنهم وديارهم ، فأصبحوا من الخاسرين .

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها ، إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد ، وإن طلوع الشمس من مغربها ، وانصباب ماء النهر من منبعه ، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون للأول كما يقول للثاني : « أنت المتصرف في الكائنات ، وأنت سيد الأرضين والسماوات » .

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً ، فإذا نزلت بهم جائحة ، أو ألمت بهم ملمة ، ذكروا الحجر قبل أن يذكروه ، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه .

* * *

أما سبب انتشار تلك العقائد الوثنية ، والأعمال البدعية ، والخرافات الجاهلية في هذه البلاد ، ثم تغلغلها في شعبها المسلم فهو يرجع إلى السَّببين الرئيسيين ، نذكرهما بالاختصار :

الأول : كما يعرف المطَّلِع على التاريخ القديم أن الهند من أعرق بلاد الله في الوثنيَّة ، فهي فيها قديمة وأصيلة ، إذا كانت في كثير من البلاد جديدة ودخيلة ، وقد عجنت فلسفتها ، وحضارتها ، وآدابها ، وعلم الفلك والعلوم الرياضية

والتقويم ، ـ فضلاً عن الديانات ـ بهذه الوثنية ، فهي أرض الآلهة والإلهات ، وأرض الأساطير والرِّوايات ، وأرض الأعياد والمواسم ، والمِهْرَجانات والمآتم ، تذكاراً لحوادث تاريخية دينية ، وأبطال قومية خرافية ، أثَّر كلُّ ذلك في حياة المسلمين وعاداتهم تأثيراً عميقاً ، وغمَّ عليهم الأمر على مدى الأيام[1] ، وذلك على كونهم حديثي العهد بالإسلام ، ولم تحصل لبعضهم التربية الإسلامية الكاملة ، فبقوا يُمارسون تلك التقاليد مرتبطةً بمناسبات الأفراح والأحزان ، وكان منها ما ابتدعه القُبوريون الذين كانوا يرون أنَّ فيها أجراً وثواباً ، مع أنَّ بعضها كان مشتملاً على الشرك الخفي بل على الشرك الجليّ أحياناً[2] .

والثاني : جهل مسلمي هذه البلاد بكتاب الله العزيز ، والسنة النبوية المشرفة ، لأن الكتاب الذي جاء به النبي ﷺ لهداية البشر كافةً ، قد نبذه أتباعه وراء ظهورهم ، وجعلوه زينةً لصناديقهم وخزائنهم ، وكذلك السُّنَّة فلم يسمع صوت (أخْبَرنا) ، و (حدَّثَنا) في أرجاء الهند إلى قُرون عديدة ، وكانوا لا يعرفون شيئاً عن الصِّحاح الستة ومؤلِّفيها ، وأئمَّة هذا الفنِّ ، الَّذين نقدوا هذا العلم ونخلوه ، وميَّزوه بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البِدَع والمحدثات ، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السُّنَّة المطهرة ، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ، ونستثني من ذلك ولاية « غُجْرات » التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها ، وكثرة رحلات عُلمائِها فيها إلى الحرمين الشريفين ، وكان ترتجُّ قُراها ومُدُنِها بأصوات (حَدَّثنا) و(أخْبَرنا) ، ونبغَ فيها ما نبغَ من كبار العلماء والمحدِّثين ، نكتفي على ذكر الإثنين منهم ، أحدهما : العلامة علي المتقي البُرْهَانْفُوري (٨٨٥ ـ ٩٧٥هـ) صاحب كتاب « كنز الأعمال » ، والآخر : تلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفَتْنِي (٩١٣ ـ ٩٨٦هـ) صاحب « مجمع بحار الأنوار » .

---

(١) « **الأضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ... في الهند** » للعلامة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٦ـ٧) .

(٢) « **دار العلوم ديوبند مدرسة فكرية توجيهية ، حركة إصلاحية دعوية ، مؤسَّسة تعليمية تربوية** » للشيخ محمد عبيد الله الأسعدي القاسمي ، صفحة (٢٧٣) .

ويُمكن الاطِّلاع على ذلك التأثير الذي خَلَّفته الوثنية الهندية والفلسفات اليونانية ، والتجارب المحلية في الهند على التصوُّف من خلال كتاب « جواهر خمسة » للشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، الذي ذاع صيتُه في عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، وهو يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب مؤلِّف الكتاب الشخصية ، ويُخيَّل إلينا أن النَّاس في هذا العهد لم يَرَوْا حاجةً إلى ثبوت كثير من الأمور بالرجوع إلى الأحـاديث الصحيحة ، واقتباسها من كُتب السِّيرة النبوية المعتبرة ، فتجد في هذا الكتابِ (جواهر خمسة) « صلاة الأحزاب » و« صلاة العاشقين » و« صلاة تنوير القبر » والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة ، والأدعية الخاصة بها ، لا أصل لها في السُّنَّة ، ولا أثر لها في الحديث .

ولم تكن هذه خِصِّيْصَة هذا الكتاب المذكور ـ آنفاً ـ فَحسب ، بل تتوفَّر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة ، فقد كانت سجدة التحيَّة للمشايخ شائعةً ، واتخاذ القبور مساجد علناً وجهاراً ، فكانت تُوقد عليها السُّرُج ، وتُفرش عليها الأزْدِية ، وتعظَّم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرَم ، ويُحتفل بها باسم « العُرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة » وتكثر فيها النِّساءُ ، وكان « الصلاة الغَوْثِيَّة » ، و « الصلاة المعكوسة » والنُّذر لغير الله تعالى باسم الأولياء الصُّلحاء ، والذِّبْح لابتغاء مرضاتهم ، والصوم باسم غير الله ، وأمثال هذه البِدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشِّرك) كانت شائعة في النَّاس يُقبل عليها الخاصة منهم والعامة ، وكانت تُعقد احتفالاتُ إحياء أيام الوِلادة والوفاة للأولياء والصَّالحين ، ويُحتفل بمهرجاناتٍ وأعيادٍ[١] .

ولا أقولُ ـ وحَاشاني أن أقول ـ أنَّه ما نفقت سوق الحديث في الهند ، ولم يرتفع له فيها كلمة أصلاً ، وإنما أقول أنه ما زالت راية السُّنَّة النبوية في هذه البلاد منتكسة ، (نستثني من ذلك مرةً أخرى ولاية « غُجْرَات » ، والتي ازدهر فيها هذا العلم الشريف في القرون الأولى) وما برحت أعلامها غير خافقة إلى أن ظهر

---

(١) انظر : « **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، الجزء الرابع ، صفحة (١٤٨ـ١٤٩) .

المحدِّث الشيخ عبد الحق الدِّهْلَوِي (٩٥٨ ـ ١٠٥٢هـ) في أواخر القرن العاشر الهجري ، ومن جاء مِن بعده من تلاميذه .

فلا شكَّ عندنا في صحَّة ما قاله بعض رجال الهند العبقريين ، كالزعيم المُسلم الهندي المعروف : مولانا أبو الكلام آزاد (م١٣٧٧هـ) : « لم تكن في الهند إلا فتنة التصوُّف الباطل ، ولم تخلُ قرية ، أو مدينة من الزوايا . . . ولم يكن الشيخ عبد الحق الدهلوي وعُلماء غجرات والمدن الساحلية الأخرى كالشيخ علي المتَّقي وبعض تلامذة المحدِّث محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ) إلا شواذاً[(١)] ، وكذلك ليس عندنا أدْنَى شكّ في أن علم الحديث لم ينتشر في الهند إلا بعدما ظهر الشيخ عبد الحق الدهلوي ، وخلفه بعد فترة الشَّاهْ ولي الله الدهلوي وأنجاله الكِرام ، فاستضاءت البلاد الهندية بالكتاب والسنة نوراً ، وتضوعت بها عبقاً وأريجاً »[(٢)] .

هذا غيضٌ من فيض ، ووَشَلٌ من بحر ، ولو استعرضنا وضع هذه البلاد وما نزل بالإسلام وأهله من الدَّواهي لاستغرق مجلَّدات ، وإنَّما أردنا في هذه الصفحات المتواضعة أن نُشير إليها باختصار ليكون القارىء العربي على بصيرةٍ من الأمر ، واطلاع على السَّبب الذي دفع مؤلِّف هذا الكتاب إلى تأليفه .

* * *

ويجمل بنا الآن أن نذكر باختصار هؤلاء العلماء المُصلحين في هذه البلاد ، الذين سعوا سعيهم في إصلاح ما فسد من تعاليم الإسلام ، وإحياء ما ماتتْ من السُّنن النبوية ، واستئصال البدع والمحدثات ، والخرافات الوثنية قبل أن تستفحل ، وكان لمساعيهم في جميع ما سعوا إليه أثر عظيم ، وفضل كبير لا يُنكرا[(٣)] ، فكان في مقدَّمة هؤلاء العلماء المُصلحين :

---

(١) المصدر نفسه ، صفحة (٣٧٨) .

(٢) « **تذكرة** » لأبي الكلام آزاد ، صفحة (٣٧٧) .

(٣) وإن كان ـ رغم جهودهم الحثيثة في إصلاح هذا المجتمع المسلم ـ بعض الآثار من تلك البدع والمحدثات ما زالت باقيةً إلى يومنا هذا عند بعض الجُهَّال ، في الغلوّ في الأئمة والمشايخ ، والأولياء والصَّالحين ، واعتقاداتهم الفاسدة ، وعاداتهم الجاهلية ، والتعظيم=

الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرْهِنْدِي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) :

كان شديد الإنكار على البِدَع والخرافات التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع ، وتفنيدها ، وعدم الاعتراف بوجود « البدعة الحسنة » ، إنه حقَّق الفرق بين البدعة والسُّنة ، وأَقْيِسَة المجتهدين ، واستحسانات المتأخرين ، والتعارف عن القرون المشهود له بالخير ، وما أحدثه الناسُ في القرون المتأخرة ، وتعارفوه فيما بينهم ، فردَّ بذلك مسائل استحسنها المتأخرون من فقهاء مذهبه ، ومنها أنه كان يأمر بما يراه معروفاً وينهى عن ضدِّه ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يخاف من ذي سطوة في سلطانه .

يدلُّ على مدى غيرته على العقائد الإسلامية ، وحميته الدينية ، ما كتبه إلى عالم معاصِر ، حكى في رسالته من كلام الشيخ عبد الكبير اليمني ، ما يُخالف العقيدة الإسلامية ، وهو « إن الله يعلم الغيبَ ، ويُحيط علمه بالكليَّات دون الجزئيَّات » قال الإمام السِّرهندي في الرَّدِّ عليه : « . . . يا أخي ! إنني لا أستطيع سماع مثل هذه الكلمات ، إنَّ عرقي الفَارُوقي[١] ينبض ويتحرَّك ، كان قائلها عبد الكبير اليمني أو محي الدين ابن عربي ، إنَّ إمامنا ورائدنا هو محمَّد العربي ﷺ ، لا محي الدين ابن عربي ، إن الفُتوحات المدنية أغْنَتْنا عن الفتوحات المكية[٢] إن لنا شأناً مع النصوص لا الفصوص »[٣] .

الإمام أحمد شَاهْ وَلِي الله بن عبد الرَّحيم الدِّهْلَوِي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) :

أحد حكماء الإسلام ونوابغه ، وكبار المفكرين الإسلاميين ، من طِراز الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية .

= بغير ما أمر الله به ، وشرع ما لم يأذن به الله ، وهي لا في هذه البلاد فحسب ، بل في جميع بلاد المسلمين والعرب ، تستوجب دعوة قوية صريحة ، حكيمة بالغة .

(١) ينتمي الإمام السرهندي إلى سيِّدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ وتنتهي سلسلة نسبه بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا عمر .

(٢) أراد بـ «**بالفتوحات المكية**» كتاب الشيخ محي الدين بن عربي المشهور بـ«**الفتوحات المكية**» .

(٣) اقرأ للاطلاع على حياة الإمام السرهندي وجهوده الإصلاحية ، الجزءَ الثالث لكتاب « **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** » للعلامة أبي الحسن الندوي .

قام الإمام الدهلوي وأصحابه بمهمَّة التجديد الإسلامي في الهند خيرَ قيام ، فنشروا العِلم الصحيح ، وأذاعوا مصادر الدين الأولى ، وألَّفوا كُتباً دسمةً قوية مبتكرة ، تمهِّد العقولَ والنفوس لإحداث انقلاب إسلامي وإنشاء دولة إسلامية ، نفقت بجهوده سوق الحديث في الهند وقامت دولة العلم .

كان شديدَ الإنكار على الطُّقوس والتقاليد الهندوسيَّة الرائجة في المسلمين ، والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم ، وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهندوس[١] .

خلفه ابنُه الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، الذي شنع بعده على تلك المعتقدات الباطلة والأوهام والخرافات الجاهلية ، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم ، وعابهم عليه .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) :

دعا الإمام أحمد إلى الدين الخالص والتوحيد وإتباع السُّنَّة ، وحارب الشركَ والجاهلية والبدع محاربةً سافرةً شديدةً ، وبثَّ في الشعب روحاً دينية قويةً لم تعهد من قرون متطاولة، ودعا الناس إلى الإيمان والإحسان والتقوى ، والجهاد في سبيل الله ، وقد تحقَّق أن من بايع وتابَ على يده ، يبلغ عددهم إلى ثلاثة ملايين شخصاً، ومن أسلم على يده من الوثنيِّين وغير المسلمين يبلغ عددهم إلى أربعين ألفاً[٢] .

العلاَّمة الشهيد إسماعيل بن عبد الغَنِيّ الدِّهْلَوِي (١٠٩٣ ـ ١٢٤٦هـ) :

هو حفيد الإمام ولي الله الدهلوي ، كان أشدهم في دين الله ، وأحفظهم للسنة ، يغضب لها ، ويندب إليها ، ويشنع على البدع وأهلها ، أحيا كثيراً من السُّنن الممات ، وأمات عظيماً من الأشراك والمحدثات ، حتى نال درجة الشهادة العُليا[٣] .

---

(١) اقرأ الجزء الرابع لـ « **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** » الخاص بالإمام الدهلوي .

(٢) راجع « **إذا هبت ريح الإيمان** » للعلامة أبي الحسن الندوي . طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٣) « **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** » للعلامة عبد الحي الحسني ، الجزء الثالث ، صفحة (٩١٤ ـ ٩١٦) .

فنشطت حركة نشر الحديث ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات بجهود هؤلاء الأئمة المجدِّدين ، والعلماء المُصلحين ، وبتدريس كُتب الحديث ومعاداة البدع والعادات الجاهلية المحليَّة ، والدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السُّنِّية ، والرجوع إلى ما كان عليه السَّلَف الصالح والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول وتحركت الهِمَم ، وكثر الدعاةُ إلى الدين ، والمكافحون للفساد ، ونشأ من هذه الحركةِ بعضُ المدارس للحديث والسنة في الهند : ونذكر منها الثَّلاث التي قام المتخرِّجون منها بدورٍ كبيرٍ في نشر علوم الكتاب والسُّنَّة ومقاومة البِدع والخرافات في شبه القارة الهندية ، فمنها :

المدرسة السلفيَّة[1] :

كان رائدها العلامة وِلَايَتْ علي العظيم آبَادِي ، (١٢٠٥ ـ ١٢٦٩هـ) ، من كبار خلفاء الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وأحد العلماء الربَّانيين في الهند في العهد الأخير .

مدرسة العلامة السيد نذير حُسين الدهلوي (م١٢٢٠هـ) :

استفاد من صاحبها كثير من أهل العرب والعجم ، وانتهت إليه رئاسة الحديث في الهند .

دار العلوم دِيُوْبَنْد :

أكبر جامعة دينية في شبه القارة الهندية كلِّه ، تستحق أن تُسمَّى أزهر الهند ، أسَّسها العالم الجليل الشيخ محمد قاسم النَّانَوْتَوِي عام ١٢٨٣هـ . يقول عنها العلامة أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ : « وقد تكفَّلت هذه الجامعةُ من أول يوم تأسيسها حركةَ نشر العقيدة الصحيحة في التوحيد ، واتباع السُّنة ، والتَّجَنُّب عن الأعمال الشركية ، والغُلُوِّ والمبالغة في التعظيم ، وقد أمدَّت قيادة المنتمين إلى هذه الجامعة وقادة حركتها وإدارتها ، لحركة تحرير البلاد ، ومحاربة السلطة الإنكليزية والاستعمار ، ثم استقامتهم في الدِّين ، وتجرُّدهم عن المطامع والشهوات بصفةٍ غالبةٍ ، وصلاحهم واستقامتهم على السُّنَّة ، ونُفورهم عن البدع والمحدثات ،

---

(١) الواقعة في صَادِقْفُوْر من أحياء مدينة « بَتْنَا » عاصمة ولاية « بِهَار » اليوم .

وإنكارهم الصريح القويّ على ما شاعَ في شبه القارة الهندية من تقليد غير المسلمين في إطار المهرجانات ، والأعياد والمواسم ، وزيارة المشاهد وتقديسها ، فَلُقِّبُوا بـ « الوهابيَّة »[1] وقُوطع كثير منهم ، وحُورب حرباً شعواءاً ، ولكن لم يُضعف كلُّ ذلك في صمودهم ، واستقامتهم ، وصراحتهم ، واعتزازهم بعقيدتهم ، والثبات على موقفهم[2] .

وكان للمتخرِّجين مِن هذه الجامعة[3] مواقف محمودة في دحض أباطيل طائفةٍ

---

(١) وإن كان هذا الانتماء الكريم لا غضاضة فيه ، لكنني ذكرت دلالة على أن الخُرافيين اتخذوا كلمة « الوهابي » لله كلمة سبَّة وعار ، يرمون بها من يعارضهم ويُخالفونهم في الرأي والعقيدة .

(٢) في تقديمه لكتاب « **دار العلوم ديوبند مدرسة فكرية توجيهية** . . . » صفحة (٣٤) .

(٣) والجامعات التي تليها وتُشارك في العقيدة والمبدأ والشعار ، كـ : دار **العلوم** ـ ندوة العلماء (لكهنؤ) ، ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، مع اختلاف يسير في المنهج والاختيار والترجيح ، ولكن مع الاتفاق على المبادىء والانتماء إلى مدرسة الإمام ولي الله الدهلوي الفكرية والعلمية والدعوية ، فإنَّ هذه المدارس الثلاثة كلها دوحات وأغصان من شجرة واحدة ، وإنما تتميز فيما بينها بخصائصها وترجيحاتها ومجالات عملها .

بينما استطاع **علماء دار العلوم ديوبند** الجمع بين الدين والعلم والسياسة جمعاً موفقاً ، فمارسوا السياسة العملية ، مع الاشتغال بالعلم والتأليف ، والدعوة والتبليغ ، مع الانشغال بعبادة الله وحده ومراقبته في السر والعلن ، وتزكية النفس وإصلاح المجتمع ـ من غير أن يطغى أحد الجوانب على أخراها ـ امتثالاً لأمر الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج : ٢٢] .

عُرف علماء **مظاهر العلوم** بالعكوف على العلم ، والاهتمام بإصلاح الباطن وتهذيب النفس ، وإصلاح الفرد ، متأسين بأسوة ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا . . . ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٦٤] .

وامتازت **ندوة العلماء** بالجمع الموفق بين القديم الصالح والجديد النافع ، ورفع النزاع ـ بوجه خاص ـ من بين المسلمين ، وتسديد الفجوة القائمة بين العلماء والمثقفين بالثقافة العصرية ، والتقريب بين فئات متباعدة من الأمة ، وتخريج أجيال من العلماء المتضلعين بالكتاب والسنة وعلومهما ، المطلعين على أحوال العالم ، وما يجري فيه ، قادرين على الدفاع عن الإسلام والمسلمين في مجالات هاجمها الغزو الثقافي باسم التاريخ والفن =

متطرِّفةٍ من المبتدعين والقُبوريِّين ، نشأت في ثلاثينيات هذا القرن واشتهرت بـ « البَرِيْلَوِيَّة » ، وكان إمامهم المدعو الشيخ أحمد رضا خان البَرِيْلَوِيّ[1] ، الذي

= والأدب ، ودحض أباطيلهم ، وكشف النقاب عن حقيقتهم ، وعرض الإسلام عرضاً منقّحاً ، سليماً من شوائب الشرك والبدع ، مؤسّساً على الكتاب والسنة ، مطابقاً للغة العصر وأسلوبه ، وإعادة ثقة الشباب المسلم في دينه القويم ، وماضيه المجيد ، ومستقبله الزاهر ، واثقين فيما يعتقدون به ويدعون إليه ، عملاً بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] . وقول الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وانظر للتعرف ـ إجمالاً ـ على طبيعة هذه المدارس ، واتجاهاتها وترجيحاتها ، ومميزاتها ومجالات عملها ، ونجاحها في تحقيق أهدافها ، كتاب : « المسلمون في الهند » و« الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية » و« مسيرة الحياة » و« الأضواء على الحركات والدعوات الدينية . . » كلها للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني النْدوي ، و« المراكز الإسلامية والمعاهد الدينية في الهند » للدكتور عبد الحليم الندوي .
(من « دار العلوم ديوبند مدرسة فكرية توجيهية . . . » صفحة :) .

(١) وقد كتب العلامة أبو الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ ترجمةً طويلةً عنه في استدراكاته لكتاب « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » (المعروف بـ « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » لوالده مؤرخ الهند الكبير العلامة عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ) نلخِّص لك هنا ما كتب فيها العلامة الندوي ـ وهو معروف باعتداله فيما كتب وألّف ـ يقول : « هو الشيخ العالم المفتي ، أحمد رضا خان بن نقي علي بن رضا علي الأفغاني الحنفي البريلوي المشهور بعبد المصطفى ، ولد سنة ١٢٧٢هـ ببلدة « بريلي » . واشتغل بالعلم على والده ، ولازمه مدة طويلةً ، حتى برع في العلم وفاق أقرانه في كثير من الفنون لا سيّما الفقه والأصول .
[ذاكر علماء الحجاز في بعض المسائل الفقهية والكلامية ، وألف بعض الرسائل أثناء إقامته بالحرمين ، وأجاب عن بعض المسائل التي عُرضت على علماء الحرمين ، وأُعجبوا بغزارة علمه ، وسعة اطلاعه على المتون الفقهية ، والمسائل الخلافية ، وسرعة تحريره وذكائه .
كان متشدِّداً في المسائل الفقهية والكلامية ، متوسعاً مسارعاً في التكفير ، قد حمل لواء التكفير والتفريق في الديار الهندية في العصر الأخير ، وتولّى كبره ، وأصبح زعيم هذه الطائفة (أي : الطائفة البريلوية) تنتصر له ، وتنتسب إليه ، وتحتج بأقواله ، وكان لا يتسامح ولا يسمح بتأويل في كفر من لا يوافقه على عقيدته وتحقيقه ، أو من يرى فيه انحرافاً عن مسلكه ومسلك آبائه ، شديد المعارضة ، دائم التعقُّب لكل حركة إصلاحية . =

= انعقدت حفلة « مدرسة فيض عام » سنة ١٣١١هـ في كانفور ، وحضرها أكثر العلماء النابهين ، وهي الحفلة التي تأسست فيها ندوة العلماء ، ومن أكبر أغراضها توحيد كلمة المسلمين وإصلاح ذات البين بين علماء الطوائف وإصلاح التعليم الديني ، وحضرها المفتي أحمد رضا المترجَم ، وخرج منها وقد قرر محاربة هذه الجمعية ، فأصدر صحيفة أسماه « التحفة الحنفية لمعارضة ندوة العلماء » ، وألف نحو مئة رسالة وكتاب في الرد عليها ، وأخذ فتاوى العلماء في أنحاء الهند ، وتوقيعاتهم في تكفير علماء الندوة ، وجمعها في كتاب سمَّاه « إلجام ألسنة لأهل الفتنة » وأخذ على ذلك توثيق علماء الحرمين ، ونشره في مجموعة ، سماها « فتاوى الحرمين برجف ندوة المين » في سنة ١٣١٧هـ .

ثم انصرف إلى تكفير علماء ديوبند ، كالإمام محمد قاسم النَّانَوْتَوِي والعلامة رشيد أحد الكَنْكَوهِي ، والشيخ خليل أحمد السَهَارَنْفُوْرِي ومولانا أشرف علي التَّهانَوِي ومن والاهم ، ونسب إليهم عقائد ، هم منها برآؤ ، ونص على كفرهم وأخذ على ذلك توثيقات علماء الحرمين الذين لا يعرفون الحقيقة ، ونشرها في مجموعة سماها « حسام الحرمين على منحر أهل الكفر والمين » قال فيها : « من شك في كفرهم وعذابهم فقد كفر » واشتغل بها الرد والنقض والمحاربة والمعارضة لا تأخذه في ذلك هوادة ولا يعتريه وهن ، حتى أصبح التكفير شغل الناس الشاغل ، وكانت مضاربات ومحاكمات وفتن ومشاغبات .

وكان يعتقد بأن رسول الله ﷺ كان يعلم الغيب علماً كلياً ، فكان يعلم منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة بل إلى الدخول في الجنة والنار جميع الكليات والجزئيات ، لا تشذ عن علمه شاذة ، ولا تخرج من إحاطته ذرة ، وكان يعبر عنه بقوله : « علم ما كان وما يكون » وقد صنف في هذا الموضوع عدة رسائل منها : رسالة سماها « إنباء المصطفى » ورسالة أخرى باسم « خالص الاعتقاد » وله رسالة في هذا المعنى بالعربية سماها « الدولة المكية » وعلق عليها حاشية زادت عليها أضعافاً مضاعفة وسماه « الفيوض الملكية » ، وكان ينتصر للرسوم والبدع الشائعة وقد ألف فيها رسائل مستقلة ، وألف رسائل في الاستمداد والاستعانة بأولياء الله وأهل القبور ، وكان مع ذلك يرى حرمة سجدة التحية وألف فيها رسالة سماها « الزبدة الزكية لتحريم سجود التحية » وهي رسالة جامعة تدل على غزارة علمه وقوة استدلاله ، وكذلك كان ينتصر للأعياد التي تقوم على القبور ويسميها أهل الهند « الأعراس » ومع ذلك يحرم الغناء بالمزامير ، ويحرم صنع الضرائح منسوبة إلى الحسين ـ عليه وعلى آبائه السلام ـ ، التي يصنعها أهل الهند بالقرطاس ويسمونها « تعزية » .

كان عالماً متبحراً ، كثير المطالعة واسع الإطلاع ، له قلم سيال وفكر حافل في التأليف ، تبلغ مؤلفاته ورسائله على رواية بعض مترجميه إلى خمس مئة مؤلف ، أكبرها « الفتاوى الرضوية » في مجلدات كثيرة ضخمة ، كان قوي الجدل ، شديد المعارضة ، شديد

لم يترك عالماً من علماء عصره إلا وقد رَمَاه بالكفر ، يقول عنه العلامة أبو الحسن الندوي : « حامل لواء التكفير في شبه القارة الهندية ، وأشهر داعٍ إلى التمسُّك بالتقاليد البدعية ، والخرافات المنتشرة في الهند ، حول الأعراس ، والضرائح ، والأعياد ، والمواسم ، وإثبات علم الغيب للنَّبي ﷺ ، والتصرُّف العام للأولياء والمشايخ ، وهو الذي أذاع لقب « الوهابي » في شبه القارة الهندية »[1] .

فألّف الشيخ البريلوي مئات من الكُتب في تكفير علماء الحقِّ أمثال : العلامة الشهيد إسماعيل بن عبد الغني (مؤلِّف هذا الكتاب وحفيد الإمام ولي الله الدهلوي) ، والشيخ محمد قاسم النَّانَوْتَوِي[2] (مؤسِّس دار العلوم ديوبند) ، والعلامة المحدِّث الشيخ رشيد أحمد الكَنْكُوْهِي[3] ، والمحدِّث الفقيه الشيخ

= الإعجاب بنفسه وعلمه ، قليل الاعتراف بمعاصريه ومخالفيه ، شديد العناد والتمسك برأيه ، يندر نظيره في عصره في الإطلاع على الفقه الحنفي وجزئياته ، يشهد بذلك مجموع فتاواه وكتابه « كفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم » الذي ألفه في مكة سنة ١٣٢٣هـ ، وكان راسخاً طويل الباع في العلوم الرياضية والهيئة والنجوم والتوقيت ، ملماً بالرمل والجفر ، مشاركاً في أكثر العلوم ، قليل البضاعة في الحديث والتفسير ، يغلو كثير من الناس في شأنه فيعتقدون أنه كان مجدِّداً للمئة الرابعة عشر .

[مات لخمس بقين من صفر سنة أربع وثلاثمئة وألف] . انظر : « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » الجزء الثالث ، صفحة (١١٨٠ ـ ١١٨٢) .

(١) **أضواء على الحركات** . . للعلامة الندوي ، صفحة (٣٨) و« **مقالات إسلامية في الفكر والدعوة** » للعلاَّمة الندوي ، الجزء الثاني .

(٢) أحد العُلماء الرَّبانيِّين ، كان أزهد الناس وأعبدهم ، وأكثرهم ذكراً ومراقبةً ، أسَّس مدرسةً إسلاميةً بديوبند ، تحوَّلت اليوم جامعةً كبيرة ، تُعْرف بـ « دار العلوم ديوبند » ، وله مشاهد عظيمة في المباحث بالنصارى والآرية ، فناظر أحبار النصارى وعلماء الهندوس غير مرة ، فغلبهم وأقام الحجّة ، وظهر فضله في المناظر ، له مؤلفات ذات شأن في علم الكلام وفضل الإسلام ، وإثبات بعض عقائده وأحكامه وكُتبه . وهو جدير بأن يُعتبر من أركان النهضة التعليمية الدينية ، السُّنية الإصلاحية ، على طراز القديم ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٢٩٧هـ . (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام) الجزء الثالث ، صفحة ١٠٦٧ .

(٣) أحد كبار العلماء والمحدِّثين في الهند ، كان آيةً باهرةً ، ونعمة ظاهرةً في التقوى ، واتباع السنة النبوية ، والعمل بالعزيمة والاستقامة على الشريعة ، ورفض البدع ومحدثات الأمور ، ومحاربتها بكل طريق ، والحرص على نشر السنة ، وإعلام شعائر الإسلام ، =

خليل أحمد السَّهَارَنْفُورِي[1] ، والمصلح الكبير الشيخ أشرف علي التَّهانْوِي[2] وغيرهم ، ولقَّبهم بالوهابيِّين لمشابهة جُهودهم بحركة الإمام محمد بن عبد الوهاب في المحافظة على عقيدة التوحيد ومحاربة البدع[3] .

ولا بدَّ أن أسجِّل هنا بهذه المناسبة أن الإنجليز كان لهم دورٌ بارزٌ في هذه الدعاية ، وقد اعتادوا في العهد الأخير أن ينسبوا كلَّ حركة إصلاحية ، ودعوة إلى التوحيد ، والدين الخالص ، وهجر البدع والخرافات إلى حركة الشيخ محمد بن

= والصدع بالحق ، انتهى إليه الإمامة في العلم والعمل ، ورئاسة تربية المريدين ، وتزكية النفوس ، والدعاء إلى الله ، وإحياء السنة وإماتة البدع . توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٢٣هـ (« الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » الجزء الثالث ، صفحة ١٢٢٩) .

(١) أحد العُلماء الصالحين ، وكبار الفُقهاء المحدِّثين ، نفع الله به خلقاً كثيراً ، وخرج على يده جمعاً من العُلماء والمشايخ ، ونبغت بتربيته جماعة من أهل التربية والإرشاد ، وأجرى على يدهم الخير الكثير في الهند وغيرها ، في نشر العلوم الدينية ، وتصحيح العقائد وتربية النفوس ، والدعوة والإصلاح ، من أجلِّهم المُصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكَانْدَهْلَوِي ، (مؤسِّس جماعة الدعوة والتبليغ المشهورة) والمحدِّث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي . وكان شديد الاتباع للسُّنة ، نفوراً عن البدعة ، توفي ـ رحمه الله ـ بالمدينة المنورة عام ١٣٤٦هـ ، ومن آثاره العظيمة « بذل المجهود في شرح سُنن أبي داود » في مجلدات ضخمة . (« الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » الجزء الثالث ، صفحة ١٢٢٢) .

(٢) هو المُصلح الكبير ، والمربِّي الجليل الشيخ أشرف علي التَّهانَوِي ، كان من كبار العُلماء الربانيين الذين نفع اللهُ بمواعظهم ومؤلفاتهم ، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظِه ، عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل ، واستفاد منها ألوف من المسلمين ، ورفض عدد لا يُحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية ، والرُّسوم والبدع التي دَخلت في حياة المسلمين ، له مصنفات كثيرة ممتعة ما بين صغير وكبير ، وجزء لطيف ، ومجلدات ضخمة ، أحصاها أحد تلامذته وبلغت إلى نحو ثمانمئة (٨٠٠) ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٦٢هـ . (« الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » الجزء الثالث ، صفحة : ١١٨٧) .

(٣) ولا تزال الكثرة الكاثرة من أولئك المبتدعين ، يعقدون مواسم حول الضرائح ، وقبور الأولياء ، ويمارسون الأعمال الشركية ، انظر للتعرف على هذه الفرقة المبتدعة عقيدةً ونشأةً وتاريخاً كتاب « **البريلوية** » للأستاذ نظام الدين عبد الرحمن الندوي ، وهو رسالة ماجستير ، قدَّمها المؤلف في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض .

عبد الوهاب ، ويثبتوا أن صاحبها قد تتلمذ على الشيخ واقتبس من فكرته ودعوته ، كذلك كان موقفهم من دعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وصاحبه العلاَّمة إسماعيل الشهيد لمصالحهم السياسية ، وهذا وإن لم تكن فيه غضاضة ، فقد ظلَّ المُصلحون يقتبس بعضهم من بعضٍ ، لم يثبت تاريخياً ما حقَّقه كثير من الباحثين ، ولم يتحقق أن أحدهما لقي أحمد تلاميذ الشيخ عبد الوهاب أو دُعاته[1] ، أمَّا ما يجده القارىء من موافقات أو التقاءات في الدعوتين أو بين « رسالة التوحيد » للشيخ عبد الوهاب وكتاب « تقوية الإيمان » (المترجم الآن باسم « رسالة التوحيد ») للشيخ إسماعيل فلأنَّ مصدرهما واحد ، وهي الدراسة العميقة الأصلية للكتاب والسُّنة ، والتضلُّع من روح الإسلام الصافية ، والغيرة على عقيدة الإسلام ودعوته[2] .

وإن دراسات مؤلَّفات الشيخ عبد الوهاب وعُلماء جماعته تجلي الحقيقة ، ولا تدع القارىء مجالًا لأدنى شكٍّ في أنَّ دعوتَه كانت تهدف أصلاً إلى إخلاص التوحيد ، والعضِّ على السنة النبوية بالنواجذ ، والجهاد بكل طريق ممكن ضدَّ الشرك والبدع وأنواعها ، وعرض الإسلام في صورته الأصلية نقياً خالصاً صافياً . . . وبالجملة كانت رسالته مبدئياً هي نفس الرسالة التي تقدَّم بها عُلماء هذه البلاد[3] كالإمام أحمد السَّرهندي ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد شِفاهاً وتبليغاً ، تعليماً وتثقيفاً ، فبَعْدهم أمثال الإمام إسماعيل بن عبد الغني الشهيد ، وأمثاله من العُلماء بعد كعُلماء « دار العلوم ديوبند » . الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والعلامة المحدِّث الشيخ رشيد أحد الكنكوهي ، والشيخ أشرف علي التهانوي ، وتلاميذهم ومن خلفهم في الدعوة والمهمة من ألوف العُلماء والأفاضل كتابةً وتأليفاً .

فبالمختصر فإن مثل هذه الدعايات الشيطانية ، والطوائف البدعية أثَّرت تأثيرها

---

(١) راجع « **الحركة الإسلامية في الهند** » للأستاذ مسعود الندوي .

(٢) « **إذا هبت ريح الإيمان** » للعلامة أبي الحسن الندوي ، صفحة (١٦) .

(٣) « **دعايات مكثَّفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب** » للشيخ محمد منظور النعماني ، صفحة (١٠١ ـ ١٣) ، نقلاً عن « **دار العلوم ديوبند** . . » صفحة (٢٧٨) .

المطلوب على القطاعات الدينية والأوساط الإسلامية التي احتضنت دعوة هؤلاء العلماء المصلحين ، خاصة منهم دعوة الشيخ إسماعيل الشهيد الَّتي بثَّها من خلال كتابه هذا « تقوية الإيمان » (أي : « رسالة التوحيد ») الذي يدعو إلى التوحيد الخالص النقي ، واتباع السنة المحضة .

وترى أن هؤلاء المبتدعين والقبوريين لم يتركوا جماعة إصلاحية ودعوية إلا اتهموا أصحابها بالوهَّابيين ، وأعداء الدِّين ، وهذا تُلاحِظه اليوم خاصةً مع جماعة الدعوة والتبليغ في بلاد شبه القارة الهندية ، وقد اتهموا بأنها جماعة وهابية ، لأن أصحابها يدعون إلى منابذة التقاليد الشركية ، ويحاربون المبتدعين والقبوريين ، وإن أشدهم عداوةً لهذه الجماعة هم الطائفة « البَرِيْلَوِيَّة » المبتدعة الخرافية ، التي تنتمي إلى الشيخ أحمد رضا خان البريلوي ، التي تناصبها العداء وتتَّهمها بالعمالة للحركة الوهابية ، وتُحارب هذا الكتاب « تقوية الإيمان » ولا تدع هذه الجماعةَ تدخل في مناطقها ومساجدها ، وقد تشعل حرباً ، وتتعدى ضرباً لأصحابها ، شأنهم في هذا شأن الجاهليين الذين كانوا يقولون : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1]ـ[2] .

ولكن يشهد الله بأن كل هذه المحاولات والاتهامات والمناوشات لا تزيد الجماعة إلا صبراً واستقامةً ، فيُجاريهم الله تعالى بقلب الأحوال ، وتغيير النفوس والقلوب ، فكم من مبتدعة عادوا إلى حظيرة السُّنَّة ، وكم من واقعيين في الشِّرك ، عادوا إلى التوحيد الخالص ، وكم من ضُلال اهتدوا إلى الحقِّ ، بجهود هؤلاء العُلماء المُصلحين وأصحاب هذه الجماعة المُخلصين ، يشهد بذلك ويراه رأيَ العين كل من يجول في هذه البلاد .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

(٢) مع الأسف الشديد . . . لم تنحصر معاداة هؤلاء المبتدعين البريلويين وتحاملُهم وحِقدُهم على أشخاص جماعة الدعوة والتبليغ في بلاد شبه القارة الهندية فقط ، بل تراهم اليوم يتطاولون ويتحاملون إذا خرجوا منها إلى البلاد العربية على أعلام هذه الجماعة ـ بل أعلام الدعوة الإسلامية في هذا العصر ـ ، الذين لم يُوافقوا على عقائدهم الوثنية وخرافاتهم الجاهلية ، وأنكروا لها أشدَّ الإنكار ، نذكر لك البعض منهم ، أمثال : =

= ـ **العلاَّمة الداعية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ** ، الذي عرفه العالمُ الإسلامي كأكبر داعية إلى الله في العصر الحاضر ، ومؤسِّس أكبر جماعة دعويّة وإصلاحية في العهد الأخير ، يندر مثله في قوة الإيمان بالغيب ، والاعتماد على الله ، وقوَّة الدعوة والانقطاع إليها ، والتجرُّد لها ، والنجاح في مهمته ، وقد انتشر دُعاتُه وجماعاته في العالم الإسلامي ، وهي في نشاط مستمر ، وغدو ورواح في الأقطار الإسلامية ، وفي أوربة وأمريكة وأفريقية واليابان ، وقد أشعلتْ دعوتُه مجامرَ القلوب ، وألهبت جذوة الإيمان في آلاف مؤلَّفة مِن المسلمين .

ـ **والثاني** : ونجله الكريم **العلاَّمة المحدِّث الشيخ محمَّد يوسف الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ** ، صاحب كتاب ذائع الصيت « حياة الصحابة » ، والذي قال عنه العلاَّمة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ : « إنه من خير الكُتب التي أُلِّفت في القرن الرابع عشر للهجرة ، وهو أوحدها وأفضلها في موضوعه وبابه ، وقد نفع الله تعالى به ألوفَ الألوفِ من الناس عرباً وعجماً ، علماء ومتعلمين ، ودعاة ومدعوين ، شرقاً وغرباً » . (انظر : « حياة الصحابة » الجزء الأول ، صفحة : ١٦ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق) . قلَّما تخلو منه اليومَ مكتبةُ عالم ، ومسلم مثقف .

ـ **والثالث** : غنيٌّ عن التعريف ، هو **العلاَّمة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ** والذي ـ كما قال الشيخ يوسف القرضاوي ـ لا يختلف فيه اثنان ، ولا ينتطح عنزان ، كما يقولون . اجتمع عليه السلفيون والمتصوِّفون ، والمذهبيون واللامذهبيون ، كما اجتمع عليه المثقفون بالثقافة الإسلامية التقليدية ، والمثقفون بالثقافات الحديثة ، أحبَّه الجميع لاعتقادهم بصدقه وإخلاصه وتجرده لله ، وبُعْدِه عن الأغراض الشخصية ، والمصالح الذاتية ، والعصبية الجاهلية » (انظر : « الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفتُه » صفحة : ١٤٩ ، طبع دار القلم ، دمشق) .

ولكن . . . اختلف في هؤلاء أعلام الأمة الإسلامية أولئك المبتدعون ـ البريلويون ـ بسبب عدم موافقتهم على عقائد أولئك الخرافية ، وإنكارهم الشديد لها ، فبدؤوا يَعْزُون إلى هؤلاء الأعلام أقوالًا وعقائداً ـ والتي تُخالف العقيدةَ الصحيحةَ ـ ليُشوِّهوا بها سمعتهم الذائعة في البلاد العربية .

ولكن يا ترى . . . محاولات هؤلاء المبتدعين السخيفة ودعاياتهم الشيطانية هذه ، في تشويه سُمعة هؤلاء أعلام الدعوة الإسلامية ـ الذين ملؤوا الدنيا علماً وفضْلاً ـ بالعَزْو إليهم ما لم يقولوا ويكتبوا ، في عُقر دارِ قوم ـ أي العرب ـ عرفوهم وقرؤوهم أكثر من أهل بلادهم ، فما هي إذنْ ؟ . . . إلَّا كما قال الشاعر :

كنَاطِحٍ صخرةً يوماً لِيَفْلِقَهَا ... فلَمْ يَضِرْها وأَوْهى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وأخيراً . . . معذرةً من القارىء على هذه الإطالة في المقدمة ، والإسهاب في الحديث الذي سردناه هنا ، وقد رأينا من اللازم أن نُشير في هذه المقدمة إلى تلك البدع والمحدثات والخرافات والعقائد التي تسرَّبت إلى مسلمي هذه البلاد مع تبيين سبب انتشارها ، ونسلِّطَ الضوء على تلك الجهود الجبَّارة التي بذلوها علماء هذه البلاد في إماتة تلك البدع . وإزالة تلك المحدثات ، وإصلاح تلك العقائد ، وإحياء السُّنن الممات ، وإعادتهم إلى ما كان عليه سلفهم الصالح ، ونتحدَّثَ عن بعض العلماء الربانيِّين ، والدعاة المصلحين الذين يرجع إليهم الفضل في كلٍّ هذا ، والمدارس الدينية ، والجماعات الدعوية التي لعبت دوراً هامّاً في مقاومة هؤلاء المبتدعين والقبوريين الذين اتهموا أصحابها تارةً بـ « أعداء الدين » وتارةً بـ « الوهابية » .

وهذا ما دفع مؤلِّف هذا الكتاب ـ وإن كان تأليفه قبل ظهور بعض تلك الطوائف والجماعات البدعية والخُرافية مقيَّدةً باسم ، أو منتميةً إلى أحد ـ إلى وضع كتاب أمام مسلمي هذه البلاد يُصبح لهم شعاراً وعلماً للدعوة إلى التوحيد ، وبيان الحق الصريح ، فكان لكتابه هذا من القبول والتأثير والانتشار ما لا يكون إلا لكتابات كبار المُخلصين ، والأئمَّة المجدِّدين ، والدُّعاة المصلحين ، وظلَّ الكتاب منذ يوم تأليفه إلى يومنا هذا نبراساً يبدِّد حلكة الظلام الذي خيَّم في طريق المسلمين المتطلعين إلى معرفة حقيقة التوحيد .

وقد رأى بعضُ علماء الهند وجودَ بعض تلك البدع والمحدثات في البلاد العربية أثناء زياراتهم لها ، التي كانت الأمس ـ وما زالت اليوم ـ معاقل الإسلام ، ومراكز العلوم الشرعية ، ومواطن علماء الإسلام في البلاد العربية ، فحزنوا عليه أشد الحزن ، وأرادوا نقل هذا الكتاب إلى لغتهم ـ وإن كانت هي غنية عن الكُتب في مثل هذا الموضوع ـ راجين أن يؤثِّر في أبنائها في إصلاح بعض العقائد ، وإزالة البدع والمحدثات الرائجة فيهم ، كما أثَّر هو تأثيراً قوياً في مسلمي شبه القارة الهندية الذين كانوا واقعين فيها قروناً متطاولة .

ولكن لم يحالفهم التوفيق للقيام بهذا العمل ، ولعل ذلك . . . أن حكمة الله كانت تقتضي أن يتمَّ هذا العمل على يد فقيد الدعوة الإسلامية ، المربِّي الحكيم ،

المفكِّر الإسلامي الكبير ، الأديب العربي البارع ، العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، فنقله إلى العربية تلبيةً رغبة شيخه العلامة المحدِّث الشيخ محمد زكريا الكَانْدَهْلَوِي ـ رحمهما الله تعالى ـ في لغة سهلة ، وأسلوب رشيق كما له العهد بهما في كلِّ ما كتب وألَّف ، وعلَّق عليه حواشياً مفيدة ، وعبارات مؤيدة لما جاء في هذا الكتاب من التصريح بالتوحيد الخالص ، والرد على الشرك ، صحت نسبتها إلى كبار علماء الإسلام السابقين ، والشيوخ الصالحين المتفق على ولايتهم وجلالتهم[1] وهذا أوّل كتابٍ ـ على ما أحسبُه ـ نقله العلامة الندوي إلى العربية ، وكتب الله له القُبول والذيوع قلّما يحصلا لكتاب في هذا العصر ، وقد اطَّلع عليه كبار علماء العرب ، وأساتذة جامعاتها وأعجبوا به ، وقال أحدهم : « هذا مِنجيق التوحيد » .

وقد صدر للكتاب طبعاتٌ عديدة من الهند والباكستان ، ومن بعض البلاد العربية ، وهو الآن يدَّرس ككتابٍ مقرَّر في كلية الشريعة (في السنة الأولى) بجامعة ندوة العلماء ، وفي جميع الفروع التابعة لها في الهند وخارجها ، نقدِّمه اليوم أول مرَّة محقَّقاً ومنقَّحاً مع تخريج الأحاديث ، وذِكر بعض التراجم الواردة فيه ، والتعليق على ما دعت إليه الضرورة إلى التعليق فيه ، وإضافةً إليه فصلاً مستخرَجاً من كتاب « العقيدة والعبادة والسلوك » للعلامة الندوي ، لما رأينا له صلة قوية بموضوع الكتاب .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل جهدنا المتواضع في إخراج هذا الكتاب القيم ، ويعمِّم به النفع ، إنه سميع مجيب ، وهو على كل شيء قدير .

كتبه

المعتز بالله تعالى

عبد الماجد الغوري

دمشق ١/ المحرم ١٤٢٤هـ

٤/ آذار ٢٠٠٣

(١) وقد أشرنا إلى تعليقات العلامة الندوي برمز الميم بين المعقوفتين .

كلمة المُترجم

[بقلم : العلامة أبي الحسن علي الحسني النَّدْوِي ـ رحمه الله ـ]

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين وإمام المتَّقين ، قائد الغُر المُحجَّلين ، محمد وآله وصَحْبه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، من الأئمة المهديين ، والدعاة المصلحين ، المجددين لهذا الدين ، الذين لم يزالوا ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين ، أفضل ماجزى العلماء الراسخين ، النائبين عن الأنبياء والمُرسلين .

أما بعد : فقد كُنَّا نشعر بمسيس الحاجة منذ زمن طويل إلى نشر كتاب واضح المنهج ، صريح العبارة ، مشرق الديباجة ، سهل المتناول ، ينمُّ عن إخلاص مؤلفه ، وصدق لهجته وتوجّع قلبه مما يرى الناس عليه في عصره من الجهل لغاية الخلق ، وبعثة الأنبياء والرُّسل أجمعين ، من إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له ، والخوف والرجاء منه ، والاستغاثة به والتضرع إليه ، ولما كان يرى من انتشار العقائد والعادات ، التي جاءت الأديان السماوية لمَحْوها ، وأنزلت الكتب وبعثت الرسل لمحاربتها والتخلص منها ، حتى أصبح الناس من ذلك في جاهلية جهلاء ، وفتنة عمياء ، واحتاجوا إلى دعوة صارخة سافرة إلى الدين الخالص ، والحنفية السمحة .

وقد شرح الله صدر الشيخ محمد زكريا الكَانْدَهْلَوِي[١] في مدينة الرسول ﷺ

---

(١) هو العلاَّمة المحدِّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، كان من كبار العلماء والمحدِّثين في=

(في شهر ذي الحجة ١٣٩٣هـ) لنقل كتاب « تقوية الإيمان » للإمام المجاهد ، الداعي إلى الله ، الشهيد في سبيل الله ، الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن أحمد وَلِي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي (ش ١٢٤٦هـ) ، فإنه كتاب أصبح شعاراً وعلماً للدعوة إلى التوحيد ، وبيان الحق الصريح ، وقد نفع الله به خلائق في شبه القارة الهندية لا يحصيهم إلَّا من أحصى رمل عالج وحصى البطحاء .

وقد صدر هذا الكتاب عن قلب جريح متقطع بمشاهدة ما كان عليه المسلمون من بُعد عن التعاليم الإسلامية ، وخضوع للوثنية الهندية ، وتمسُّك بالعادات الجاهلية ، وقد زاد في تأثيره وقبوله ، دموع عين باكية على الإسلام ، ودم زكي أريق في سبيل إحياء هذا الدين ، وتنقيته من الجاهلية ، وتأسيس حكومة شرعية تقوم على منهاج الكتاب والسنة ، ويكون الدين كله لله .

وقد قرن ـ رحمه الله ـ الدعاء بالدعوة ، والجهد بالجهاد ، والشهادة للحق بالشهادة في الحق وذلك لباب التوحيد ، وغاية الإخلاص ، وكمال الصدق ، وتمام الوفاء ، وصدق الله العظيم : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1] ، فكان لكتابه من القبول والتأثير ، والذيوع والانتشار ، ما لا يكون إلا لكتابات كبار المخلصين ، والعلماء العاملين والدعاة المجددين .

وسِرُّ قوة الكتاب في صراحته وتشخيصه للأدواء ، ومظاهر الشرك ، ومواضع الانزلاق وأنه يضرب على الوتر الحساس ، ويصيب ضعف الاعتقاد ، وما فُتن به المسلمون في العهد الأخير ، من الغُلو والتقديس والتعظيم ، وتقليد الأمم الوثنية ، والعادات الجاهلية في صميمه ، وقد اعتاد الناس أن لا يفزعوا للمواعظ والخُطَب

= الهند ، انتقل في آخر عمره إلى السعودية وأقام بالمدينة المنورة حتى وافاه الآجل المحتوم عام ١٤٠٣هـ ، ومن أشهر مؤلفاته : « أوجز المسالك شرح الموطأ للإمام مالك » و « لامع الدراري على جامع البخاري » و « الأبواب والتراجم » و « حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ » انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق : « **أعلام المحدثين في الهند** » صفحة (١٢١ ـ ١٣٣) طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

التي تُلْقى على المنابر ، أو البحوث العلمية التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بصفة إجمالية عامة ، إذا لم تتعرض للأمراض التي يعانونها ، والأخطاء التي يرتكبونها ، والعادات التي لا يُمكنهم الفطام عنها للأشخاص والأماكن والشعائر التي يكونون فيها ، فيتجاهلون كل ذلك ، ويتظاهرون بأن الواعظ أو الكاتب لا يعنيهم وإنما يعني المشركين القُدامى ، وعباد الأوثان في الجاهلية الأولى ، أما إذا تعرض هذا الكاتب أو الواعظ لواقع حياتهم ، ووضع يده على عِلَلهم وأسقامهم ، وحدد مواضع فتنتهم ، لم يسعهم أن يتغافلوا عنه ، فأعلنوا الحرب عليه ، ونادوا بعدائه وهذا شأن الداعي المخلص الذي ملكتْه الفكرة ، واستحوذَ عليه الشعور ، وتذوُّق القرآن ، ومنهج الأنبياء في دعوتهم تذوقاً حقيقياً ، فإنه لا يُبالي أرضيَ الناس أم سخطوا ، إن همَّه الوحيد أن يبلغ رسالة القرآن ، ويرضي ربه ، ويريح ضميره ، ويبرىء ذمته .

ويحسن هنا أن أنقل ما كتبتُه في كتابي « **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** » وأنا أتكلم عن سِرِّ تأثير الإمام الحسن البصري في المجتمع الإسلامي في مستهلِّ القرن الثاني الهجري ، ونفوذه في القلوب والعقول ، وإن المجتمع لم يستطع أن يتجاهله ، وأن يمر به مَرَّ الكرام ، قلت : « **إنه ضرب على الوتر الحساس ، ونزل في أعماق المجتمع ، ووصف أمراضه ، وانتقدهُ انتقاد الحكيم الرفيق ، والناصح الشفيق ، لقد كان عصره يغصُّ بالدعاة والوعاظ ، ولكن المجتمع لم يخضع لهم خضوعه للحسن ، لأنه كان يمس قلبه ، ويَنْزِل في صميم الحياة ، ويعارض التيار** »[١] .

لذلك كله وقع اختيارنا على نقل معاني هذا الكتاب ، ومحتوياته إلى لغة الضَّاد في أسلوب عصري رشيق ، وتعبير سهل سائغ .

وقد طلب منا الشيخ الجليل محمد زكريا السابق ذكره ، أن تكون بداية هذا العمل في مسجد الرسول ﷺ ، وقد يسَّر الله ذلك في سَلْخ[٢] ذي الحجة ١٣٩٣هـ

---

(١) انظر : « **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** » للعلامة الندوي ، الجزء الأول ، صفحة (٦٣) ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) **السَّلْخ** : آخِر الشهر .

في ساعة مباركة قبل زوال الشمس يوم الأربعاء ، فكتبت السطور الأولى من المقدمة في مكان بين باب الرحمة وباب جبرائيل ، مكتظٌ بالحجاج الوافدين ، والمشتغلين بالذكر والتسبيح ، والصلاة على النبي ﷺ ، وفي جوٍّ من السَّكِيْنَة ، والخُشوع والحب ، ونحمد الله أن كانت فاتحة هذا العمل في هذا المسجد العظيم ، الذي انبثق منه هذا النور وانطلقت موجة التوحيد ، والدعوة إلى الله إلى أنحاء العالم ، فبدَّدت الظلام ، وغمرت القلوب بفيض من الإيمان ، ونور التوحيد ، وطهرت النفوس ، وأشرقت الأرض بنور ربِّها ، وتمت نعمة الله على عباده .

ويسَّر الله إتمام هذا العمل ، والقيام به بقدر الطاقة في مدة قريبة ، وأيَّام معدودة ، والحمد لله الذي بِعزَّته وجلاله تتم الصالحات .

ورأينَا أن نلحق بالكتاب ترجمة مؤلفه العلاَّمة الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي ، مقتبسة من المجلد السابع لكتاب « **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر** »[1] للعلامة السيد عبد الحي الحسني[2] ، ليطلع القارىء على عُلوِّ كعب المؤلف في العلوم الدينية ، ورسوخ قدمه في الدين ، وحُسن بلائه في الإسلام ، وغيرته على نقاء العقيدة وأصالتها ، وقد أجاد من قال : « إن ترجمة المؤلف نسب الكتاب » ولذلك أكثر المؤلفون في الإسلام من تأليف كتب الطبقات والتراجم . والسِّير والأخبار ، وأجادوا في ذلك وأفادوا . ووضعنا عناوين جانبية للكتاب ، وتناولنا بعض الكلمات والعادات المحلية ، والأعلام التي تختص بالهند بالشرح والإيضاح والتعريف ، حتى يسهل على القارىء العربي الكريم ، فهم الكتاب والتذوق به .

---

(١) الذي صدر حديثاً بعنوان « **الإعلام في تاريخ الهند من الأعلام** » من دار ابن حزم ببيروت .

(٢) هو مؤرخ الهند الكبير ، العلاَّمة عبد الحي الحسني ، (والد العلاَّمة أبي الحسن الندوي) ، صاحب مؤلفات قيمة بالعربية والأردوية ، تولّى رئاسة دار العلوم ـ ندوة العلماء (الهند) سنوات طويلة ، توفي عام ١٣٤١هـ ، ومن مؤلفاته المشهورة « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » و « الهند في العهد الإسلامي » و « الثقافة الإسلامية في الهند » و « تهذيب الأخلاق » و « الغناء في الإسلام » ، من يريد الاستزادة من الاطلاع عليه فليقرأ : « العلامة السيد عبد الحي الحسني . . . » للدكتور قدرة الله الحسني ، طبع دار الشروق ، جدة .

ونقلنا بعض المقتطفات من كلام بعض أعلام هذه الأمة وأئمّتها تأييداً لبعض ما ورد في هذا الكتاب من تعبيرات وعبارات لم يألفها كثير من الناس لشيوع الأساليب الإصلاحية في العهد الأخير ، التي تعتمد على مجاراة العواطف ، ومسايرة المعروف المألوف ، إيثاراً لتوسيع الدعوة على تعميقها ، وتبليغ العقيدة على ترسيخها ، وجلب المنفعة على دفع المضرَّة ، وتفادياً من وحشة الناس ، وسخط العامّة ، ولكل وجهة هو مولِّيها[١] .

ويعرف القارىء العربي من خلال هذا الكتاب ، وما ورد فيه من ذكر أنواع الانحراف والضلال ، وتقليد الأكثرية من سكَّان الهند ، مدى تغلغل الحضارة الهندية ، والعادات الجاهلية والتقاليد الوطنية في أحشاء المجتمع الإسلامي الهندي ، وخضوع المسلمين في هذه البلاد ، للفلسفة الهندية ، البرهمية ، والهند كما يعرف المُطَّلِع على التاريخ القديم من أعرق بلاد الله في الوثنية ، فهي فيها قديمة وأصيلة ، إذ كانت في كثير من البلاد جديدة ودخيلة ، وقد عجنت فلسفتها وحضارتها ، وآدابها ، وعلم الفلك ، والعلوم الرياضية ، والتقويم ، فضلاً عن الديانات ، بهذه الوثنية ، فهي أرض المؤلهين والمؤلهات ، وأرض الأساطير والروايات ، وأرض الأعياد والمواسم ، والمِهْرَجَانَات والمآتم ، تذكاراً لحوادث تاريخية ودينية ، وأبطال قومية خرافية ، أثَّر كل ذلك في حياة المسلمين ، وعاداتهم تأثيراً عميقاً ، وغمَّ عليهم الأمر على مدى الأيام ، والتبس الحق بالباطل بتهاون الحكام والسلاطين ، وقلة انتشار علم الحديث ، وكتب السنة الصحيحة ، ورواجها ، وشدة اختلاط المسلمين بجيرانهم في كل مدينة وقرية ، وحي و زقاق ، حتى قيض الله للصدع بالدعوة ، وتمييز الحق من الباطل ، والقشور من اللباب رجالاً من علماء الدين ، والدعاة المرشدين .

وكان ذلك من أقوى الأسباب التي حملت مؤلِّف هذا الكتاب وقد نشأ في بيئة هندية خالصة ، وفي مركز هذه الحضارة على أن يكون صريح العبارة ، قوي العارضة ، مرهف الحسّ في هذا الموضوع ، لا يحتفل بالنقد واللائمة ، ولا يُبالي

---

(١) وقد أشرنا إلى تعليقات العلاّمة أبي الحسن الندوي في الحواشي برمز الميم بين المعقوفتين .

بسخط الخاصة والعامة ، ولو طالت به الحياة ، ووجد فرصة للدعوة والبقاء في الهند ، فلربما أخذ الأمر بالتدريج ، ومشى الهوينا ، ولكنه كان مضطراً إلى مغادرة الهند ، وكأن حادي الشوق يحدو به إلى الجهاد ، والشهادة في سبيل الله ، فألف هذا الكتاب إتماماً للحجة ، وبراءة للذمة ، وجعله كلمة باقية في عقبه لعلّهم يرجعون .

وليس الأمر مقصوراً على الهند التي بعدت عن مهد الإسلام ومهبط الوحي ، ودخلها الإسلام عن طريق بلاد العجم ، وقد فقد الشيء الكثير من قوته وجدته ، بل تبلبلت العقيدة الإسلامية ، واختلطت بشيء كثير من البدع والضلالات في العواصم الإسلامية وبلاد العرب ، في القرن السابع والثامن الهجريين ، بتأثير الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام جديدة ، وحملت معها رواسب كثيرة من دياناتها وعاداتها ، واختلاط المسلمين مع غير المسلمين والعجم ، ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية في مصر والشام وتأثيرهما ، وانتشار تعليمات بعض المتصوفين الجهلة ، ومن قرأ كتابَي شيخ الإسلام ابن تيمية « **الردُّ على البَكْرِي** » ، و « **الردُّ على الأَخْنَائِي** » عرف الشيء الكثير عن غُلو الجهال في الأئمة والمشايخ والأولياء والصالحين ، واعتقاداتهم الفاسدة ، وعاداتهم الجاهلية ، ولا يزال لهذا الغلو والتعظيم بغير ما أمر الله به ، وشرع لما لم يأذن به الله ، آثار باقية في بلاد المسلمين والعرب ، تستوجب دعوة قوية صريحة ، وحكمة بليغة ، لذلك ليست فائدة هذا الكتاب محدودة في الهند ، بل تعم جميع الأوساط التي استطاع الشيطان أن يتسرَّب إليها ، وانتشر فيها من العقائد والعادات مالا يرضاها الإسلام ، ولا يقرُّها الشرع ، ولا يقبلها ضميرُ المُسلم الواعي .

وقد أَسْمَيْنَا هذه الترجمة بـ « **رسالة التوحيد للعلامة الشيخ إسماعيل الشهيد** » لأنَّ هذا الاسم أدَلُّ على مسمَّاه ، وقد تولَّى المؤلف نقل كتابه الذي وضعه بالعربية ، وسماه بـ « **رَدّ الإشراك** » وقد طارت العنقاءُ بهذا الأصل العربي وفُقِد ، وتسميتنا أقرب إلى تسميته الأصلية .

والله نسأل أن ينفع بهذه الترجمة كما نفع بالأصل ، ويشرح بها صدورَ المؤمنين . وعلى الله قصد السبيل .

غرة ربيع الأول ١٣٩٤هـ — **أبو الحسن علي الحسني الندوي**

ترجمة المؤلِّف

هو الشيخ العالم الكبير ، العلامة المجاهد في سبيل الله ، إسماعيل بن عبد الغني بن وَلِي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي ، أحد أفراد الدنيا في الذكاء والفطنة ، والشهامة ، وقوة النفس ، والصلابة في الدين .

وُلد بدِهْلِي(١) لاثنتي عشرة من ربيع الثاني سنة ثلاث وتسعين ومئة وألف ، وتوفي والده في صباه ، فتربّى في مهد عمِّه الشيخ عبد القادر بن ولي الله الدهلوي(٢) ، وقرأ عليه الكتب الدرسيّة ، واستفاد من عمَّيْه الشيخ رفيع الدين(٣) ، والشيخ عبد العزيز(٤) أيضاً ، ولازمهما مدةً طويلة ، وصار بحراً زاخراً في المعقول والمنقول ، ثم لازم السيدَ الإمام أحمد بن عرفان(٥) ، وسافر معه إلى الحرمين

---

(١) دهلي (وتُكتب « دِلْهِي » أيضاً) : عاصمة الهند .

(٢) هو الشيخ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي ، أحد العُلماء البارزين المبرَّزين في المعارف الإلٰهية ، جمع العلم والعمل ، والزهد والتواضع وحُسن السلوك ، كان يدرّس ويُفيد ، قرأ عليه خلق كثير من العلماء . ومن أعظم ما مَنَّ اللهُ تعالى عليه أنه وفِّق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره في لغة أهل الهند ، توفي بدلهي سنة ١٢٣٠هـ .

(٣) هو الشيخ الإمام العَلم الكبير العلاَّمة رفيع الدين عبد الوهاب بن ولي الله الدهلوي ، المحدِّث المتكلِّم الأصولي الحجة الرحلة ، كان فريد عصره ، ونادرة دهره ، اعترف بفضله علماءُ الآفاق ، توفي بدلهي سنة ١٢٣٣هـ ، وله مصنفات قيمة ورسائل ممتعة في موضوعات مختلفة .

(٤) هو الشيخ الإمام العالم الكبير العلاَّمة المحدِّث عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي ، سيد العلماء في زمانه ، لقَّبه بعضُهم (سراج الهند) ، أخذ العلم عن والده الجليل ، كان أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه ، وعلمه وذكائه ، وفهمه وسرعة حفظه ، اشتغل بالدروس والإفادة وله خمس عشرة سنة ، فدرَّس وأفاد ، حتى صار في الهند العَلم المفرد ، وتخرَّج عليه الفضلاء ، توفي بدلهي عن ثمانين سنة من عمره سنة ١٢٣٩هـ ، وله مؤلفات قيمة كلها مقبولة عند العلماء ، ومحبوبة إليهم .

(٥) هو الإمام المجاهد الشيخ السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، الذي قاد في شبه القارة الهندية=

الشريفين ، سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف ، فحج وزار ، ورجع معه إلى الهند ، وساح البلاد والقرى بأمره سنتين ، فانتفع به خلق لا يُحصون بِحَدٍّ وعد ، ثم سافر معه إلى الحدود[1] سنة إحدى وأربعين ومئتين وألف ، فجاهد معه في سبيل الله ، وكان كالوزير للإمام ، يجهِّز الجيوش ، ويقتحم المعارك العظيمة ، بنفسه حتى أُستشهد في « بَالَاكَوْت »[2] من أرض « يَاغِسْتَان » .

* * *

وكان نادرة من نوادر الزمان ، وبديعة من بدائعه الحسان ، مقبلاً على الله بقلبه وقالبه ، مشتغلاً بالإفادة ، والعبادة ، مع تواضع وحسن أخلاق ، وكرم وعفاف ، وشهامة نفس وصلابة دين ، وحسن محاضرة ، وقوة عارضة ، وفصاحة ورجاحة ، فإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعض شقاق ، جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ، ويجمع بين الضب والنون ، فلا يكاد يفارقه إلا وهو عنه راض .

قال الشيخ محسن بن يحيى التُّرْهَتي[3] في « اليانع

= تلك الحركة الإسلامية العظيمة ، التي لا يُوجد لها نظير في شمولها وقوَّة تأثيرها ومشابهتها للدعوة الإسلامية الأولى ، والمنهج النبوي الكريم ، لا في القرن الثالث عشر الهجري فحسب ، الذي هو عهدها ، بل لا نعثر في عدة قرون ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية ، التي تركت فيما بعد آثاراً بارزة عميقة خالدة على الأجيال القادمة ، والركب القادم لدعاة الحق والصدق ، ورجال الفكر والجهاد . ويعتبره ـ لأجل هذه المأثرة الإصلاحية والتجديدة العظيمة ـ معظم أصحاب الفكر والبصيرة المنصفين مجدد القرن الثالث عشر الهجري ، استشهد الإمام ـ رحمه الله ـ في معركة « بالاكوت » سنة ١٢٤٦هـ ، انظر للاستزادة من الاطلاع على حياته وحركة جهاده كتاب العلاَّمة أبي الحسن الندوي : « إذا هبَّت ريح الإيمان » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(١) موقعها الآن في مديرية « هَزَارَهْ » من مقاطعة الحدود الشمالية الغربية على تخوم ولاية « كشمير » وهي كلها بلاد جبلية .

(٢) وكانت منطقة « بالاكوت » كلها تسمَّى « ياغستان » قديماً .

(٣) هو الشيخ العالم المحدِّث : مُحسن بن يحيى البكري الترهتي ، كان من كبار العلماء ، وصاحب إنشاء ، وترسُّل بالعربية ، قلَّما يوجد نظيره في عصره ، في عبارته رشاقة ، وعليها بهاء ، توفي بالمدينة المنوَّرة عام ١٢٨٠هـ .

الجني[1] » : إنه كان أشدهم في دين الله ، وأحفظهم للسنة ، يغضب لها ، ويندب إليها ، ويشنع على البدع وأهلها .

وقال [الشيخ] صديق بن الحسن [خان] القَنُّوجي[2] في « **الحطة بذكر الصحاح الستة** » في ذكر الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي : « إن ابن ابنه المَوْلَوِيّ[3] محمد إسماعيل الشهيد ، اقتفى أثر جده في قوله وفعله جميعاً ، وتمم ما ابتدأه جده ، وأدى ما كان عليه ، وبقي ما كان له ، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال ، وقواطع الأقوال ، وصحاح الأحوال ، ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام ، كما يزعم الجهال ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾[4] .

وهو رحمه الله تعالى أَحيا كثيراً من السُّنن المماتات ، وأَمات عظيماً من الأشراك ، والمحدَثات ، حتى نال درجة الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلى ، وبلغ منتهى أمله ، وأقصى أجله .

* * *

وأما مصنفاته [باللغة العربية والفارسية] فهي عديدة ، أحسنها كتابه :

بالفارسية :

١ ـ **الصراط المستقيم** : جمع فيه ما صح عن شيخه السيد الإمام قولاً وفعلاً ، وفيه بابان من إنشاء صاحبه الشيخ عبد الحي ابن هبة الله الصديق البرهانوي .

---

(١) اسمه الكامل : « **اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني** » .

(٢) هو العالم الهندي المشهور ، علاَّمة الزمان ، وترجمان الحديث والقرآن ، صاحب المصنفات الشهيرة ، والمؤلفات الكثيرة ، توفي عام ١٠٣٧هـ . انظر للاستزادة من الاطلاع عليه « **الأمير صديق حسن خان القنوجي حياته وآثاره** » تأليف الدكتور محمد اجتباء الندوي ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

(٣) **المَوْلَوِيّ** : يلقَّب به علماء المسلمين في شبه القارة الهندية .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

٢ ـ **إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضريح** : في بيان حقيقة السنة والبدعة .

٣ ـ **منصب إمامة** : في تحقيق منصب النبوة والإمامة ، وهو مما لم يسبق إليه ، ومنها رسالة له في :

٤ ـ **مبحث إمكان النظير وامتناع النظير** .

بالعربية :

٥ ـ **رد الإشراك والبدع** : رتَبها على بابين ، ومنها

٦ ـ **تنوير العينين في إثبات رفع اليدين** : بالعربية ، ومنها

٧ ـ **سلك نور** .

بالأردوية :

٨ ـ **تقوية الإيمان** : كتاب مشهور له بالأردوية (المترجَم الآن بالعربية باسم « رسالة التوحيد ») .

٩ ـ **رد الإشراك** .

١٠ ـ [**عبقات** : في الفلسفة والحكمة ، تجلى فيها ذكاؤه ، واقتداره على هذا العلم][١] .

وقال أحمد بن محمد المتقى الدهلوي[٢] في « **آثار الصناديد** » : إن له رسالة في المنطق ، ادعى فيها أن الشكل الرابع من أجلى البديهيات ، والشكل الأول خلافه ، وأقام على ذلك الادعاء من البراهين ما لم يندفع ، ولم يجترىء على دفعها أحد من معاصريه »[٣] .

* * *

---

(١) من زيادة العلاَّمة الندوي .

(٢) المعروف بالسيِّد أحمد خان مؤسس الجامعة الإسلامية بعلي كره الهند، توفي سنة ١٣١٥هـ.

(٣) ملتقطاً من « **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** » للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله تعالى ، الجزء الثالث ، صفحة : (٩١٤ ـ ٩١٦) .

أُستشهِد الشيخ إسماعيل في سبيل الله لستِ ليالٍ بقين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦هـ بمعركة بَالَاكُوت .

* * *

ترجمة
العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي
(مترجم الكتاب)[1]

هو الداعية الحكيم ، والمربِّي الجليل ، والمفكِّر العظيم ، والأديب الكبير : العلاَّمة السيد أبو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني .

وُلد عام ١٩١٣م . في قرية « تَكِيَهْ شاه عَلَم الله الحسني » من مديرية « رَايْ بَـرِيْلِي » بالولاية الشمالية « أُتْرَا بَرْدِيْش » الهند .

درس في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، وقضى فترة من الزمن في دار العلوم الإسلامية في دِيُوْبَنْدَ ، ومعهد علوم القرآن في مدينة لاهور .

تخصص في الأدب العربي وفي علم التفسير وفي الحديث الشريف ، وعيِّن أستاذاً للأدب العربي وللتفسير في ندوة العلماء ثم قام بتدريس الحديث الشريف فيها .

وبقي مشتغلاً بعمل الدعوة بخطاب الناس وبالكتابة فقد خرج في سبيل الدعوة مرات عديدة في مختلف مدن الهند وبلدانها ليعظ ويدعو ، وكتب مئات من المقالات وألف عشرات من الكتب في الفكر الإسلامي والدعوة والتوعية ، ثم انقطع عن التدريس إلى الدعوة إلى الله خطابة وحديثاً وكتابة وتأليفاً .

* * *

اختير نائباً لرئيس اللجنة العليا للتعليم في ندوة العلماء ثم رئيساً لها ، ثم نائباً لأمين عام المجلس الأعلى لندوة العلماء ثم أميناً عاماً للمجلس ، وهو منصب رئيس دار العلوم جامعة ندوة العلماء كذلك وهو بجانب ذلك شغل مناصب الرئاسة والعضوية

---

(١) مِن إضافات المحقِّق إلى الكتاب .

طائفة من الجمعيات والمجالس في الهند وفي الخارج ، وهي على سبيل المثال :

- رئيس **مجلس الأمناء لمركز اكسفورد للدراسات الإسلامية في جامعة** كسفورد .

- رئيس **مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية** .

- **الأمين** العام **لجمعية ندوة العلماء** ورئيس **جامعتها** دار **العلوم ندوة العلماء** .

- رئيس **مجلس مجمع** دار **المصنفين** بأعظم كره (الهند) .

- رئيس **مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند** .

- رئيس **المجمع الإسلامي العلمي** بلكهنؤ .

- رئيس **مجلس التعليم الديني** لولاية اترابراديش **الهند** .

- **عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي** منذ تأسيسها .

- **عضو المجمع الفقهي للرابطة** .

- **عضو المجلس الأعلى العالمي للمساجد ، للرابطة** .

- **عضو مجامع اللغة العربية** بدمشق والقاهرة وبغداد والأردن .

- **عضو المجلس الاستشاري لدار العلوم ديوبند** . وعضو طائفة من المجالس والجمعيات الإسلامية في الهند وفي العالم العربي .

* * *

أما مؤلفاته الكبيرة الهامة والصغيرة المحدودة الحجم فهي أكثر من مئة وخمسين كتاباً ، نذكر منها **الأشهر** ، كـ :

(۱) **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ؟ (باللغة العربية والأردية والإنجليزية والتركية والفارسية والفرنسية) .

(۲) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية (بالعربية والأردوية والإنجليزية) .

(۳) **المرتضى** (باللغة العربية والأردية والإنجليزية) .

(٤) **رجال الفكر والدعوة في الإسلام** (بالعربية والأردية والإنجليزية) .

(٥) **الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة** (بالعربية والأردية والإنجليزية).

(٦) **السيرة النبوية** (بالعربية والأردية والإنجليزية) .

(٧) **ربانية لا رهبانية** (بالعربية والأردية) .

(٨) **في مسيرة الحياة** (بالعربية والأردية) .

(٩) **كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز** (باللغتين العربية والأردية) .

(١٠) **الإسلام ، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية** (بالعربية والإنجليزية والأردية) .

(١١) **إلى الإسلام من جديد** .

(١٢) **المسلمون في الهند** (بالعربية والأردية والإنجليزية) .

(١٣) **روائع إقبال** (بالعربية والأردية والإنجليزية) .

(١٤) **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية** (بالعربية والأردية والإنجليزية) .

(١٥) **الطريق إلى المدينة** (بالعربية الأردية والإنجليزية) .

(١٦) **مختارات من أدب العرب** .

(١٧) **قصص الأنبياء للأطفال** .

(١٨) **سيرة خاتم النبيين للأطفال** .

وغير هذه الكُتب والمؤلَّفات له المِئات من المحاضرات والمقالات في الفكر والدَّعوة وفي موضوعات مختلفة ، وقد قُمنا بجمع وإعداد تلك المحاضرات والمقالات في كُتب مستقلَّة حسب الموضوعات . وهي كما يلي :

(١٩) **محاضرات إسلامية في الفكر والدَّعوة** (٣ ـ أجزاء) .

(٢٠) **مقالات إسلامية في الفكر والدَّعوة** (جزءان) .

(٢١) **مقالات حول السيرة النبوية** .

(٢٢) **دِراسات قرآنية .**

(٢٣) **من أعلام المسلمين ومشاهيرهم .**

(٢٤) **أبحاث في الحضارة الإسلامية والغربية .**

(٢٥) **أبحاث حول التعليم والتربية الإسلامية .**

(٢٦) **بحوث في الاستشراق والمستشرقين .**

(٢٧) **إسْمَعِيَّات** (مجموعة تلك الأحاديث التي ألقاها العلاَّمة الندوي أثناء زياراته للبلاد العربية من إذاعاتها بعنوان : « إسمعي يا مصر » و« إسمعي يا سورية » و« إسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت) » و« إسمعوا مني صريحة أيها العرب » وغير ذلك أحاديث أخرى .

(٢٨) **خطابات صريحة إلى الأمراء والرُّؤساء .**

(٢٩) **مكانة المرأة في الإسلام**[١] .

* * *

توفي ـ رحمه الله ـ عن السادسة والثمانين من عمره الحافل بالأعمال القيمة والمآثر الجليلة في مجال الفكر والدَّعوة والآدب ، عام ١٤٢٠هـ في الهند عقب نوبة قلبيَّة مفاجئة ، رحمه الله رحمة واسعةً وتغمَّده بواسع جنَّاته[٢] .

* * *

---

(١) وقد صدرت جميع هذه الكتب في سلسلة « **تراث العلامة الندوي** » من دار ابن كثير ، دمشق .

(٢) انظر للاستزادة من الاطلاع على حياته كتاب « **أبو الحسن علي الحسني الندوي ، الإمام المفكر الداعية الأديب** » للمحقِّق ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

(١٩١٤ ـ ١٩٩٩م)

اعتنى بها

سيّد عبد الماجد الغوري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

خطبة الكتاب :

يا ربّ لك ألف ألف حمد وشكر على ما أنعمتَ به علينا من نِعم لا تُعد ولا تُحصى ، وعلى ما هديتنا إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وأرشدتنا إلى الدين الخالص ، والتوحيد النقي ، وخرطتنا في سلك أمة نبيِّك وحبيبك محمد ﷺ ، وبعثت فينا رغبة في تعلُّم هديه ، وألهمتنا حب خلفائه الذين يقودون إلى مسالكه ، ويهدون بالحق وبه كانوا يعدلون ، اللهم فصلِّ وسلِّم على حبيبك ، وآله وأصحابه ، وخلفائه ألف ألف صلاة وسلام ، وارحم أتباعهم ، وأشركنا معهم ، وأحينا على طريقهم ما عشنا ، وتوفنا عليه إذا أمتنا ، واحشرنا في زمرتهم إذا بعثتنا .

قوام العبودية تصحيح العقيدة والإيمان :

أما بعد : فاعْلموا رَحِمَكم الله ، أن البشر كلهم عبيد لله ، ووظيفة العبد وقيمته أن يقوم بالعبادة ، فالذي لا يقوم بالعبادة ، ولا يؤدِّي وظيفته فقد ثار على فطرته ، وفقد قيمته ، وقِوام العبودية تصحيح العقيدة والإيمان ، فمن تطرق إلى عقيدته خلل ، أو تعرض إيمانه لفساد لم تقبل منه عبادة ، ولم يصح له عمل ، ومن صحت عقيدته ، واستقام إيمانه

كان القليل من عمله كثيراً ، ومن هنا وجب على كل إنسان أن لا يدخر وسعاً في تصحيح إيمانه ، وأن يكون الحصول عليه ، والاستيثاق منه غاية أمله ، ونهاية سُؤله ، لا يعدل به شيئاً ، ولا يتأخر فيه دقيقة .

وقد سلك الناس في هذا العصر في الدين طرائق قِدداً ، وتشعبوا شعباً ، فمنهم من يتمسك بعادات الأولين وتقاليد السابقين ، ويعضُّ عليها بالنَّواجذ ، ومنهم من يحتج بحكايات الصالحين ، وأساطير الأولين ، ومنهم من يتشبث بكلام من تسمى بالعلماء ، وامتاز بتشدُّق اللسان وحدة الذهن ، ومنهم من يركض ركائب العقل في هذا الميدان ، ويرخي لها العنان[1] .

وكان الأفضل الأعدل أن يرد الإنسان كل ذلك إلى الله ورسوله ، فيصدر عما ثبت عنهما ، ويتحاكم إليه ، ويتخذه بياناً شافياً ، وحكماً قاطعاً ، فيقبل من قصص المشايخ والصالحين ، ومن كلام العلماء والوعاظ والمذكرين ، ما وافق الأصول والنصوص ، وينبذ من الكلام والأحاديث ومن العادات والتقاليد ما خالفها .

تسويلات الشيطان في الصَّد عن القرآن :

وأما ما اشتهر في العوام أن كلام الله ورسوله من الغُموض والدِّقة بمكان لا يفهمه فيه الناس ، ويحتاجون في فهمه إلى علم غزير ، ولا قِبَل لنا بفهم القرآن والحديث ، أما العمل بمقتضاه وتطبيقه فلا ينوء به إلا خاصة الخاصة من الذين سَمَتْ هِمَّتُهم ، وتزكت نفوسهم من الزهاد

---

(١) مع أن العقائد والشرائع لا تقوم على العقل والقياس ، ولا ينفع فيها الذكاء وحدة الذهن ، إن مصدرها الوحي والشرع [م] .

والعباد ، ولا مطمع لنا في ذلك ، وحسبنا أن نفهم كلام أمثالنا ، ونهتدي بهديهم ، ونمضي على ما درج عليه آباؤنا ، وعامة أهل بلادنا .

فيعرف الخبير أنه كلام لا نصيب له من الصحة ، لأن الله سبحانه وتعالى يصف كتابه المجيد بالبيان والوضوح[1] ، فقد قال في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[2] .

وقد ثبت من ذلك أنه لا يتعسر فهم ما جاء في القرآن ، وإنما يحتج بتعسره وغموضه من جمحت نفسه ، وقسا قلبه ، فإن النفوس تعاف الانقياد وتتهرب من العمل والطاعة ، وإنما تريد أن يلقى حبلها على غاربها ، وتترك لها حريتها وانطلاقتها .

ولا يتوقف فهم كلام الله ورسوله على علم غزير ، وذكاء حاد ، فإن الأنبياء لم يبعثوا إلا لهداية الضلّال ، وتعليم الجهّال ، وقد قال الله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] .

وقد منَّ الله بذلك على عباده ، فمن مضى بعد ذلك يقول : إنه لا سبيل لغير العالم إلى فهم ما جاء به النبي ، ولا طاقة لغير من سمت همتهم ، وتزكت نفوسهم أن يعمل بتعاليمه ، ويسلك طريقه ، فقد أنكر هذه الآية ، وكفر بهذه النعمة ، وحري أن يقال إن القرآن يرتقي بالجهال إلى درجة العلماء ، والضلّال إلى مستوى الصالحين والأصفياء ، فرب

---

(١) وقد جاء في سورة يوسف [الآية : ١] : ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ وفي سورة الشعراء [الآية : ١٩٥] : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ وفي سورة القمر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [الآية : ١٧] .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٩٩ .

(٣) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

جاهل لا يفقه شيئاً بلغ بفهمه مبلغ العلماء الراسخين ، ورُبَّ ضال تائه استنار بنوره ، واهتدى بهديه ، وبلغ ذروة الصلاح والإخلاص .

أَحْوَجُ النَّاس إلى الطبيب ، المرضى :

إن مثل ذلك مثل طبيب حاذق ، كثر حوله المرضى ، وانتشرت في أرضه الأمراض والأوباء فأشير على مريض اشتدت به العلةُ ، وأضناه المرض ، بالاستعانة بهذا الطبيب وغشيانه ، ولكنه تعلل بقوله : « أنا مريض ، لج بي المرض ، وإنما يأتيه وينتفع به من سلم من الأمراض ، واعتدلت صحته وقويت بنيته » فماذا يقول الناس عن عقل هذا الرجل وفطنته ؟ ألا يرون أنه ينكر براعة الطبيب وحذقه ، فإن الأطباء لا يعنون إلا بالمرضى ، والطبيب الذي لا يداوي إلا الأصحاء ، ولا ينتفع بدوائه إلا الأقوياء ، أما المرضى فهم أشقى الناس بطبه وحذقه ، فلا خير في هذا الطبيب ، إنه اسم بلا مسمى ، ولفظ بلا معنى .

كذلك كل من أمعن في الجهالة كانت حاجته أشد إلى تفهم كلام الله ورسوله ، وكان حَرِيّاً أن يكون أحرص عليه من غيره ، ومن كثرت ذنوبه وخطاياه ، واشتد ظلمه لنفسه ، كان أجدر بالإقبال على كتاب الله ، وهدي رسوله ، حتى يصلح حياته ، وينقذ نفسه ، كذلك يجب على كل طبقة من طبقات الناس ، الخاصة منها والعامة ، أن تتفحص كلام الله ورسوله ، وتتفهمه ، وتسلكه في حياتها ، وتزن إيمانها وعقيدتها في ميزانه ، وتحكمه على محكه .

للإيمان جُزءان :

وليَعلم أن للإيمان جُزأين :

الأول : الإيمان بالله إلٰهاً وربّاً .

والثاني : الإيمان بالرسول نبياً ورسولًا .

فالإيمان بالله إلهاً وربّاً يعني ألَّا يشرك به أحداً .

والإيمان بالرسول رسولًا ونبياً يعني ألَّا يسلك طريق غيره .

فيجب على كل أحد أن يتمسك بالتوحيد واتباع السنة بقوة وعزم ، ويبتعد عن الشرك والبدعة كل الابتعاد ، فإن الشرك والبدعة يؤثِّران في الإيمان ، ويحدثان خللاً فيه ، أما سائر الذنوب والمعاصي فهي تؤثر في الأعمال ، وتحدث خللاً فيها .

من يَصْلُح للاقتداء ؟! :

ويجب أن لا يتخذ قدوةً وإماماً إلا مَن رسخت قدمه في التوحيد ، واتباع السنة ، وكان بمعزل عن الشرك والبدعة ، بعيداً عنهما كل البعد ، لينتفع الناس بصحبته ويسري فيهم نور التوحيد وحب السنة .

موضوع الكتاب ونظامه :

لذلك ذكرنا في هذه الرسالة جملة من الآيات والأحاديث ذات صلة قوية بالتوحيد واتباع السنة ، وذم الشرك والبدعة ونبذهما ، وآثرنا فيها السهولة والوضوح ، حتى ينتفع به الخاصة والعامة بطريق سواء ، ويسلك من وفقه الله الصراط المستقيم ، ويتقرَّب به إلى الله من يدعو إلى ذلك ، ويكون له وسيلة إلى النجاة .

استفحال فِتنة الشِّرك والجهالة في الناس :

اعْلم أن الشرك قد شاع في الناس في هذا الزمان وانتشر ، وأصبح

التوحيد الخالص غريباً ، ولكن معظم الناس لا يعرفون معنى الشرك ، ويدّعون الإيمان مع أنهم قد تورطوا في الشرك وتلوَّثوا به ، فمن المهمّ قبل كل شيء أن يفقه الناس معنى الشرك والتوحيد ، ويعرفوا حُكمهما في القرآن والحديث .

مظاهر الشرك وأشكال المتنوِّعة :

ومن المُشاهد اليوم أن كثيراً من الناس يستعينون بالمشايخ والأنبياء والأئمة[1] والشهداء ، والملائكة ، والجِنيَّات عند الشدائد ، فيُنادونها ويصرخون بأسمائها ، ويسألونها أو يطلبون منها قضاء الحاجات وتحقيق المطالب ، وينذرون لها ، ويقربون لها قرابين لتسعفهم بحاجاتهم ، وتقضي مآربهم ، وقد ينسبون إليها أبناءهم طمعاً في ردِّ البلاء ، فيسمِّي بعضهم ابنه بعبد النَّبي وبعضهم بعلي بَخْش[2] ، وحسين بخش[2] ، وبِير[3] بخش ، ومَدَار بخش[4] ، وسَالاَر

---

(١) يعني أئمة أهل البيت الذين غلت فيهم الشيعة ، وأحاطوهم بهالات من التقديس والتعظيم ، ويعتقدون فيهم العصمة ، والإطلاع على الغيب ، ويفسرون الإمامة تفسيراً يجعلها مشاركة للنبوة ، بل منافسة لها في كثير من الخصائص ، وقد تأثر أهل السنة بكثير من العقائد الشيعية بحكم الاختلاط بهم ، والجهل بالإسلام [م] .

(٢) بَخش : معناه : الهِبة والرزق ، يعني فلان هِبة فلان ورزقه . **وعلي** : هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، **وحسين** : هو حسين بن علي رضي الله عنهما .

(٣) بِير : معناه : الشيخ .

(٤) هو الشيخ الكبير المعمر بديع الدين المدار الحلبي المكنبوري ، أحد مشاهير الأولياء بأرض الهند ، ينسبون إليه من الوقائع الغريبة ما يأباه العقل والنقل ، وإليه نُسب شهر من شهور السنة في التقويم المنتشر عند العامة وأهل القرى في الهند ، ودخل اسمه في الأمثال السائرة عند عوام الناس ، وهو مؤسس الطريقة المدارية التي انحرفت في العهد الأخير ، ودخل فيها الشيء الكثير من الخرافات والرياضات البهلوانية ، كانت وفاته في عاشر جمادى الأولى سنة ٨٤٤هـ [م] .

بخش[1] ، وغُلَام محيى الدين[2] ، وغلام معين الدين[3] ، ويرسل بعض الناس ضفيرة في رأسه باسم ولي من الأولياء ، وبعضهم يقلد ابنه قلادة باسم شيخ أو ولي ، وبعضهم يكسو ولده لباساً ، وبعضهم يصفد ابنه بقيد في الرجل باسم أحد المشايخ والأولياء ، وبعضهم يذبح حيواناً بأسمائهم ، وبعضهم يستغيث بهم عند الشدة ، وبعضهم يحلف في حديثه بأسمائهم .

تقليد جُهال المسلمين للمشركين :

والحاصل أنه ما سلك عباد الأوثان في الهند طريقاً مع آلتهم ، إلا وسلكه الأدعياء من المسلمين مع الأنبياء والأولياء ، والأئمة والشهداء والملائكة والجنيات ، واتبعوا سنن جيرانهم من المشركين شبراً بشبرٍ ، وذراعاً بذراعٍ ، وحذوا القُذْوة بالقُذْوة ، والنعل بالنعل ، فما أجرأهم على الله ، وما أبعد الشقة بين الاسم والمسمَّى ، والحقيقة والدعوى .

وصدق الله العظيم ، إذ قال في سورة يوسف : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ

---

(١) هو السيد سالار مسعود الغازي من أشهر الأعلام في الهند ، نسجت حوله أساطير كثيرة ، وشخصيته لم يسلط عليها الضوء الكافي علمياً وتاريخياً ، ذكره ابن بطوطة في رحلته ، وقال إنه فتح أكثر تلك البلاد ، وله أخبار عجيبة ، وغزوات شهيرة ، مات شهيداً سنة ٥٨٨هـ ، ودفن في مدينة بهرائج في الولاية الشمالية في الهند ، قال [العلاّمة عبد الحي الحسني] في « **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام** » : بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامية البناء ، والناس يفدون إليه من بلاد شاسعة ، ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج ، فيزوجونه كل سنة ، ويحتفلون لعرسه وينذرون له أعلاماً فينصبونها على قبره »[م] .

(٢) غلام ، معناه : عبد ، ومحيي الدين المراد به الإمام عبد القادر الجيلاني المشهور .

(٣) معين الدين : هو الشيخ معين الدين الجشتي الأجميري ، مؤسس الطريقة الجشتية في الهند ، كانت وفاته في سادس رجب سنة ٦٢٧هـ . وهذه الأسماء كلها غير شرعية ، وتنم عن عقيدة في القدرة والهبة والرزق ، في الأولياء والصالحين [م] .

﴿ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] .

فإذا عارضهم معارض ، وقال : أنتم تدعون الإيمان ، وتباشرون أعمال الشرك ، فكيف تجمعون بين الماء والنار ، وتؤلفون بين الضب والنون ؟ قالوا : نحن لا نأتي بشيء من الشرك ، إنما نُبدي ما نعتقده في الأنبياء والأولياء من الحب والتقدير ، أما إذا عدلناهم بالله ، واعتقدنا أنهم والله جلَّ وعلا بمنزلة سواء ، كان ذلك شركاً ، لا شكَّ فيه ، ولكننا لا نقول بذلك ، بل نعتقد أنهم خلق الله وعبيده ، أما ما نعتقده فيهم من القدرة والتصرف في العالم ، فهما مما أكرمهم الله وخصَّهم به ، فلا يتصرفون في العالم إلا بإذن منه ورضاه ، فما كان نداؤنا لهم ، واستعانتنا بهم إلا نداء لله واستعانة به ، ولهم عند الله دالة ومكانة ليست لغيرهم وقد أطلق أيديهم في ملكه ، وحكمهم في خلقه ، يفعلون ما يشاؤون ، وينقضون ويبرمون ، وهم شفعاؤنا عند الله ، ووُكلاؤنا عنده ، فمن حظي عندهم ، ووقع عندهم بمكان ، كانت له حظوة ومنزلة عند الله ، وكلما اشتدَّت معرفته بهم ، اشتدت معرفته بالله ، إلى غير ذلك من التأويلات الكاسدة ، والحجج الداحضة ، التي ما أنزل الله بها من سلطان .

والسِّر في ذلك أن القوم قد نبذوا كلام الله وحديث رسوله وراءهم ، وسمحوا لعقولهم القاصرة أن تتدخَّل فيما ليس لها مجال فيه ، وتشبَّثوا بالأساطير والروايات الشائعة التي لا تستند إلى تاريخ ونقل صحيح ، واحتجُّوا بتقاليد خرافية ، وعادات جاهلية ، ولو كانوا عوَّلوا على كلام الله ورسوله وعنوا بتحقيقه ، لعرفوا أنها نفس التأويلات ، والحجج التي كان كفار العرب يتمسَّكون بها في عصر النبي ﷺ ، ويحاجُّونه بها ، ولم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٠٦ .

يقبلها الله منهم ، بل كذَّبهم فيها ، فقال في سورة يونس : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وقد تبيَّن من هذه الآية ، أن من عَبَدَ أحداً من الخلق ، اعتقاداً بأنه شفيعه ، كان مشركاً بالله ، وقد قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[2] .

وقد نَكَبَ[3] هؤلاء الجهال عن طريق الحق ، وأعرضوا عن الله الذي هو أقرب إليهم من كل أحد ، وأقبلوا إلى غير الله ، واتخذوه ظهيراً ونصيراً ، ووليّاً من دون الله ، وحرموا أنفسهم النعمة الكبيرة ، التي أنعم الله بها عليهم ، فإنه يحقِّق جميع المطالب ، ويرد جميع الآفات من غير واسطة ، فلم يشكروا هذه النعمة ، ولم يقدروها قدرها ، وأقبلوا على خلقه يوسّطونهم ويطلبون منهم قضاء الحاجات ، ورفع الآفات ، فعسَّروا الميسور ، وفضَّلوا ملتوي الطريق ، وجاهدوا في غير جهاد ، وبدلوا نعمة الله كفراً وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ، ويبتغون في ذلك عند الله قرباً وزُلفى ، ولكنهم لم ينالوا بذلك مطلوبهم ، ولم يسعدوا بالقرب عند الله ، بل بالعكس من ذلك ، كلما أمعنوا في هذا الطريق واستمروا في هذا السلوك ، ازدادوا من الله بُعداً ، وقد وضح من

---

(١) الآية : ١٨ .

(٢) الآية : ٣ .

(٣) نَكَبَ عنه ، أي : مال عنه واعتزله .

ذلك ، أن من اتخذ ولياً من دون الله ، وإن كان ذلك على أساس أن عبادته تقربه عند الله كان مشركاً بالله ، كاذباً ، كافراً بنعمة الله . وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[1] .

وقد تبيَّن من هذه الآية ، أن الله سبحانه وتعالى لم يمنح أحداً من خلقه قدرة التصرف في العالم ، وأنه لا طاقة لأحدٍ أن يدافع عن أحد .

حقيقة شرك أهل الجاهلية وضلالهم :

وكذلك تبين أن الكفار الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ، لم يكونوا يعدلون آلهتهم بالله ، ويرونهم مع الله بمنزلة سواء ، بل كانوا يقرُّون بأنهم مخلوقون وعبيد ، ولم يكونوا يعتقدون أبداً أن آلهتهم لا يقلون عن الله قدرة وقوة ، وهم والله في كفة واحدة ، فما كان كفرهم وشركهم إلا نداءهم لآلهتهم ، والنذور التي كانوا ينذرون لها ، والقرابين التي كانوا يقرِّبونها بأسمائهم ، واتخاذهم لهم شفعاء ، ووكلاء ، فمن عامل أحداً بما عامل به الكفار آلهتهم ، وإن كان يقر بأنه مخلوق وعبد ، كان هو وأبو جهل في الشرك بمنزلة سواء .

خلال الشرك وأعماله :

فاعْلَم أن الشرك لا يتوقف على أن يعدل الإنسان أحداً بالله ، ويُساوي بينهما ، فلا فرق ، بل إن حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بخلال وأعمال (خصَّها الله بذاته العلية ، وجعلها شعاراً للعبودية) ، لأحد من

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٨٨ ـ ٨٩ .

الناس ، كالسجود لأحد ، والذبح باسمه ، والنذر له ، والاستغاثة به في الشدة ، واعتقاد أنه حاضر ناظر في كل مكان ، وإثبات قدرة التصرف له ، وكل ذلك يثبت به الشرك ، ويصبح الإنسان به مشركاً ، وإن كان يعتقد أن هذا الإنسان ، أو الملك أو الجني الذي يسجد له ، أو يذبح ، أو ينذر له ، أو يستغيث به ، أقل من الله شأناً ، وأصغر منه مكاناً ، وأن الله هو الخالق ، وهذا عبده وخلقه ، لا فرق في ذلك بين الأولياء والأنبياء ، والجِنّ والشياطين والعفاريت ، والجِنِّيَّات ، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركاً ، لذلك وصف الله اليهود والنصارى ، الذين غلوا في أحبارهم ورهبانهم ، مثل ما غلا المشركون في آلهتهم بما وصف به عباد الأوثان والمشركين ، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين ، كما غضب على غُلاة المشركين ، فقال : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وقد ذكر أن جميع الخلق سواء كانوا علماء أو عباداً ، حكاماً أو ملوكاً ، كلهم عبيد خاضعون ، عاجزون ضعفاء ، لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يملكون إذا بعثهم الله وطلبهم إلا أن يقفوا أمام ربهم خاضعين مستسلمين ، طائعين منقادين ، يقول الله تعالى في سورة مريم : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[2] .

فظهر أنه هو المتصرف وحده ، وأنه لا يملِّك أحداً غيره في ملكه ،

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة مريم ، الآية : ٩٣ ـ ٩٥ .

ولا يمكنه فيه ، وأن الناس يأتون ربَّهم فرادى لا يمنع أحد الآخر ، وقد تظاهرت الآيات على ذلك وكثرت .

ومن تأمَّل في آيتين ، أو ثلاث من الآيات الكثيرة التي سردناها ، والتي لم يتسع المجال لذكرها ، عرف الفارق بين الشرك والتوحيد ، وتجلَّت له حقيقتهما ، وقد آن الأوان لأن نذكر الخلال والأعمال التي خصَّصها الله بذاته العلية ، ولم يأذن لغيره أن يكون له نصيب منها ، وهي كثيرة يطول ذكرها ، ولكن لا بد أن نخصَّ بالذكر منها ما يستطيع القارىء الفَهِم الذكي أن يقيس عليها ، ويميز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال .

١ ـ العِلم المُحيط الشامل من خصائص الله تعالى :

وفي مقدمة هذه الأمور :

[**الأمر الأوَّل : الإشراكُ في العِلم**] : أنه من شأن الله وحده أن يكون ناظراً في كل مكان ، يعلم ما دقَّ وجلَّ ، وبَعُدَ أو دَنَا ، أو خَفِيَ أو ظَهَرَ ، لا تخفى عليه خافية في أي وقت لا فرق في ذلك بين نور وظلمة ، وبين سماوات وأرضين ، وبين قِمم الجبال ، وأغوار البحار ، هذا العلم المحيط الشامل لكل زمان ومكان ، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة ، صفة خاصة بالله تعالى ، لا يشاركه بها أحد ، فمن كان يلهج باسم أحد من الخلق ، ويناديه قائماً وقاعداً ، وعن قرب وبعد ، ويستصرخه ، ويستغيث به عند نزول البلاء ، ودفع الأعداء أو يختم ختمة باسمه ، أو يراقبه ، ويركِّز فكره عليه ، ويصرف همَّته إليه ، متمثلاً صورته كأنه يشاهده ، ويعتقد أنه إذا ذكر اسمه باللسان أو القلب ، أو تمثل صورته ، أو قبره ، واستحضرهما ، علم بذلك وعرف ، وأنه لا يخفى عليه من

أمره شيء ، وأنه مطلع على ماينتابه من مرض وصحة وعُسْرٍ ويُسْرٍ ، وموت وحياة ، وحزن وسرور ، ولا يتفوه بشيء من كلام ، وتنطق به شفتاه ، ولا يساوره هم من الهموم ، ولا يجول بخاطره معنى ، إلا وعلم ذلك ، واطَّلع عليه ، كان بذلك مشركاً ، وكل ذلك يدخل في الشرك .

ويُسمَّى هذا النوع « الإشراك في العلم » ، وهو إثبات صفة العلم المُحيط لغير الله ، وإن كان هذا الإثبات لنبي أو ولي ، أو شيخ أو شهيد ، أو إمام[1] ، أو سليل إمام ، أو عفريت أو جنية (سواء اعتقد أنه يعلم من ذاته ، أو أن علمه منحة من الله ، وعطاء منه) وقد استقلَّ بهذا العلم ، وأصبح له صفة لا تنفك عنه ، كل ذلك شرك .

٢ ـ التصرُّف المُطلق من خصائص الله تعالى :

والأمر الثاني [**الإشراكُ في التصرُّف**] : يجب أن يعتقد الإنسان ، أن التصرف في العالم بالإرادة ، وإصدار الأمر والنهي ، والإماتة والإحياء كما يشاءُ ، والبسط والقبض في الرزق ، والإفاضة بالصحة والمرض ، والفتح والهزيمة ، وتسخير القضاء والقدر ، وإنجاح المطالب وتحقيق الأماني ، ودفع البلايا ، والإغاثة في الشدائد ، وإلهاف الملهوف ، وإنهاض العاثر ، هذه كلُّها من خصائص الله تعالى ، لا يشاركه فيها أحد من الأنبياء والأولياء ، والشهداء والصالحين ، والعفاريت والجنيات ، فمن أثبت هذا التصرف المطلق لأحد منهم ، وطلب منه حاجاته ، وقرب القرابين والنذر لأجل ذلك ، أو استصرخه في نازلة ، كان مشركاً ، ويقال لهذا النوع « الإشراك في التصرُّف » سواء

(١) يعني أئمة أهل البيت .

اعتقد أنهم يقدرون على ذلك بأنفسهم ، أو اعتقد أن الله سبحانه وتعالى وهبهم هذه القدرة ، وخلع عليهم هذه الكرامة .

٣ ـ أعمال العبادة وشعائرها ، خاصَّة بالله تعالى :

والأمر الثالث [إشراكُ في العِبادة] : أن الله سبحانه وتعالى خصَّص بعض أعمال التعظيم لنفسه ، وهي التي تُسمى « عبادة » كالسجود والركوع ، والوقوف بخشوع ، وتواضع (مثلاً يضع يَده اليمنى على اليسرى[١]) وإنفاق المال باسم من يعتقد فيه الصلاح أو العظمة ، والصوم له ، وقصد قبره من أنحاء بعيدة ، وشدَّ الرحل إليه بوجه يعرف كل من رآه أنه يَؤُمُّ قبره حاجاً زائراً ، والهتاف باسمه في الطريق كالتلبية ، والتجنُّب من الرفث والفسوق ، والقنص وصيد الحيوانات ، ويمضي بهذه الآداب والقيود ، ويطوف بالقبر ويسجد إليه ، ويسوق الهدي إليه ، وينذر النذور هناك ، ويكسو ذلك القبر ، كما تُكسى الكعبة ، والوقوف على عتبته ، والإقبال على الدعاء والاستغاثة ، والسؤال لتحقيق مطالب الدنيا والآخرة ، وبلوغ الأماني ، وتقبيل حجر من أحجار هذا القبر والالتزام بجداره ، والتمسُّك بأستاره ، وإنارة السُّرج والمصابيح حوله تعظيماً وتعبداً ، والاشتغال بسَدانته ، والقيام بجميع الأعمال التي يقوم بها السُّدنة من كنس وإنارة ، وفرش وسقاية ، وتهيئة أسباب الوضوء والغسل ، وشرب ماء بئره تبركاً ، وصبه على الجسم ، وتوزيعه على الناس ، وحمله إلى من لم يحضر ، واحترام الغابة التي تحيط به ، والتأدب معها ، فلا يقتل صيدها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يختلي خلاها ، ولا يرعى ماشية في حماها .

---

(١) كما كان يقف العبيد بين يدي سادتهم في مجالس الملوك في بلاد العجم [م] .

كلُّ هذه الأعمال عَلَّمَها ربُّ العالمين عباده ، وأفردها لنفسه ، فمن أتى بها لشيخ طريقة ، أو نَبِيٍّ ، أو جِنِّيٍّ ، أو لقبر مُحقَّق ، أو مُزوَّر ، أو لنُصب ، أو لمكان عبادة ، وعكف فيها أحد الصالحين على العبادة والذكر والرياضة ، أو لبيت أو لقبر ، أو لأثر من آثار أحد الصالحين ، يتبرَّك به ، أو شعار يعرف به ، أو يسجد لتابوت أو يركع له ، أو يصوم باسمه[1] أو يقف أمامه خاشعاً متواضعاً ، واضعاً إحدى يديه على الأخرى ، أو يقرب له حيواناً ، أو يؤم بيتاً [أو قبراً] من هذه البيوت [أو القبور] من بعيد ، فيشد إليه الرحل ، أو يُوقد السُّرج فيه تعظيماً وتعبداً ، أو يكسوه بكسوة (كما تُكسى الكعبة) أو يضع على الضريح ستوراً[2] ، أو يغرِّز عَلَماً أو عوداً باسمه[3] ، وإذا رجع رجع على

---

(١) يظهر أن بدعة الصوم بأسماء الصالحين والصالحات من الأمة ، قد ظهرت في العصر القديم في الهند ، وقد يكون الصوم لشخصيات خيالية لا وجود لها ، ولهذا الصوم أحكام وآداب في النية والإفطار ، وأيام محدودة ، ويطلب قضاء الحاجات من أولئك الذين يصام باسمهم ، والاستعانة بهم ، وقد شن على ذلك الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (المتوفى سنة ١٠٣٤هـ) في رسالة له إلى إحدى الصالحات من أتباعه ، وعدَّ إشراكاً في العبادة . (رسالة رقم ٣/ ٤١) في رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد) [م] .

(٢) اعتاد الغلاة في تعظيم الأموات والقبور أن يكسوا ضرائح الأولياء والصالحين بالستور والثياب ، ويعاملونها معاملة الأحياء من المشايخ والعظماء .

وقد ظهرت هذه البدعة في بعض البلاد العربية ، يقول الشيخ علي محفوظ في كتابه « **الإبداع في مضار الابتداع** » : « ومن البدع الستور التي توضع على الأضرحة ويتنافس فيها » ، إلى أن قال : « ولكن خَدَمَة الأضرحة سوَّل لهم الشيطان ذلك ، ليفتح لهم باباً من الارتزاق الخبيث ، فتراهم إذا احتاجوا لتجديد ثوب التابوت لكل عام ، أو إذا بلي ، يوهمون العوام أن بها من البركة ما لا يحاط به ، وإنها نافعة في الشفاء من الأمراض ، ودفع الحساد وجلب الأرزاق والسلامة من كل المكار ، والأمن عن جميع المخاوف ، فتهافت عليها البسطاء ، وهان عليهم بذل الأموال في الحصول على اليسير منها » . (**الإبداع** ، صفحة : ٩٧ ـ ٩٨) ، [م] .

(٣) وهي من عادات الغلاة والجهال في الهند .

أعقابه ، أو يقبل القبر ، أو يحرِّك المراوح عليه ، ليَذُبَّ الذباب ، كما يفعل الخدم مع سادتهم الأحياء ، أو ينصب عليه سُرَادِقاً[1] ، أو يقبل عتبته ، أو يضع يده اليمنى على اليسرى ، ويتضرع إليه ، أو يجلس على ضريح سَادِناً وقيِّماً ، ويتأدب مع ما يحيط به من أشجار وآجام ، وأعشاب ، فلا يعرض لها بإهانة أو إزالة ، إلى غير ذلك من الأعمال والالتزامات ، فقد تحقق عليه الشرك ويُسمى « إشراكاً في العبادة » سواءً اعتقد أن هذه الأشياء تستحق التعظيم بنفسها ، وأنها جديرة بذلك ، أو اعتقد أن رضا الله في تعظيم هذه الأشياء ، وأن الله يفرِّج الكرب ببركة هذا التعظيم .

علامات التعظيم الدَّالة على العُبودية والاستكانة ، خاصة بالله تعالى :

الأمر الرابع [الإشراكُ في العبادة] : أن الله علَّمَ عباده طرقاً يستقيم بها إيمانهم ، وتنزل البركة في حياتهم الدنيا ، وتتحقَّق بها مطالبهم ، منها النذر لله في الشدة ، ونزول البلاء ، والنداء باسمه عند كربة وضيق ، وافتتاح كل عمل باسمه ، والذبح له حين يُرزقون ولداً شكراً لله تعالى ، وتسميتهم بأسماء يتجلَّى فيها التوحيد والعبودية ، كعبد الله ، وعبد الرحمن[2] ، وهِبة الله ، وجاد المولى ، وعطاء الله ، وأمة الله ، وعطية الرحمن[3] ، وتخصيص جزء من حواصل المزارع ، وثمار

---

(١) السُرادِق : الفِسطاط ، يجتمع فيه النَّاسُ لعرس أو مأتم وغيرهما .

(٢) وورد الحديث أيضاً فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **أحبَّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرَّحمن** » . (انظر تخريجه صفحة : ١٦٣) .

(٣) ذكر العلاّمة المؤلف هنا أسماء هندية تنطق بالتوحيد ، وتنم عن العقيدة الصحيحة كـ « خدا بخش » يعني هبة الله ، و« الله ديا » يعني عطاء الله ، و« الله دي » للأنثى يعني عطية الله ، غيرناها بأسماء شائعة في بلاد العرب ، تسهيلاً للقارىء العربي [م] .

البساتين باسم الله تعالى ، وتخصيص جزء من المال والماشية ، ونذره لله تعالى ، وتعظيم الهدي والقلائد لبيت الله ، وامتثال أوامره ، والانتهاء عن نواهيه في المأكل ، والمشرب ، والملبس ، واعتقاد أن كل ما يصيبه من خير وشر ، ومجاعة ، ورخص وغلاء ، وصحة وسقم ، وفتح وعزيمة ، وسعد وشقاء ، ومساعدة الحظ وتخلفه ، وحزن وفرح ، كله في قبضته ، والإحالة إلى مشيئته قبل ذكر إرادته ، فيقول : سأعمل كذا إن شاء الله ، وتعظيم اسمه تعظيماً تتجلى فيه قدرة الله ، وعجز العبيد ، فيقول مثلاً ربِّي ، وسيدي ، وخالقي ، وإذا أراد أن يحلف يحلف باسمه ، إلى غير ذلك من علامات التعظيم وشعائره ، فمن أتى بذلك للأنبياء والأولياء ، والأئمة والشهداء ، والعفاريت والجنيات ، مثلاً ينذر لها إذا ألمَّت به كربةٌ ، أو نزلت به ضائقة أو ينادي بأسمائها عند ملمة أو نازلة ، أو يفتتح عمله بأسمائها ، وإذا رُزق ولداً ، نذر لها نذوراً ، أو سمَّى أولاده بـ « عبد النبي » أو « إمام بَخْش » أو « بِيْر بَخْش » ويخصص جزءاً من الحبوب أو الثمرات لها ، ويقدم لها مما أخرجته الأرض من زروع وأثمار ، ثم يستعمله في أغراضها ، ويخصص من المال ، وقطعان الأنعام ، أموالًا ودوابّاً ، ثم يتأدب معها ، فلا يصرفها ، ولا يزجرها عن العلف والتبن ، ولا يضربها بعَصا أو حجر أدباً وتعظيماً ، ويتمسك بالعادات القديمة ، والأعراف الشائعة في الأكل والشرب ، واللباس ، ويتقيد بها كما يتقيد بأحكام الشريعة ، فيحرم طعاماً ولباساً لأناس ، ويحلهما لأناس ، ويحظرهما على جنس (كالذكور والإناث) ، ويُبيحهما لآخر ، فيقول : إن الطعام الفلاني لا يقربه الرجال[1] ، وإن

---

(١) نوع من الطبخ يطبخ في الهند باسم السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ يمنع منه الرجال دون=

الطعام الفلاني لا تقربه الجواري ، ولا تقربه المرأة التي تزوجت بزوج ثان ، وإن الخَبِيْص[1] الذي يُعَدُّ باسم الشيخ عبد الحق لا يأكله من يستعمل النَّارَجِيْلَة[2] ، وينسب ما يحدث من خير وشر ، وما ينتاب من بؤس ورخاء ، إلى هؤلاء المشايخ والأولياء فيقول : إن فلاناً أدركته لعنة فلان ، فجُنَّ ، وفلان طرده فلان فافتقر ، وفلان أنعم عليه فلان فساعده الحظُّ ، وحالفه الإقبال ، وأصابت الناس المجاعة بنوء كذا ، ونوء كذا ، وفلان بدأ عمله بيوم كذا ، وفي ساعة كذا فلم يوفق ، ولم يتم ، أو يقول : إن شاء الله ورسوله كان كذا ، أو يقول : إن شاء شيخي وقع كذا ، أو يضفي على من يعظِّمه أسماء أو صفات تختص بالله ، وهي من نُعوت العظمة والكبرياء ، والغنى عن الخلق ، والقدرة المطلقة ، والجود الذي لا نهاية له ، أو القهر والجبروت ، مثل المعبود ، وأغنى الأغنياء ، وإله الآلهة ، ومالك الملك ، وملك الملوك ، أو يحلف بالنبي ، أو بعَلي ، أو بأحد أولاده (الذين يسمِّيهم الشيعة الأئِمة الإثنى عشر) أو بشيخ ، أو بقبره ، وكل ذلك يتحقق منه الشرك ويسمَّى « الإشراك في العبادة » يعني أن يعظم غير الله في الأعمال التي اعتادها تعظيماً ، لا يليقُ إلا بالله .

وهذه الأنواع الأربعة للشرك ، قد جاء ذكرها صريحاً في القرآن والحديث ، لذلك قسَّمنا هذا الباب في خمسة فصول[3] ، وهي كما يلي :

= النساء ، فلا يأكلونه ، ولا يقربونه [م] .

(١) **الخَبِيْص** : الحلواء المخبوصة من الشَّمر والسَّمن .

(٢) **النَّارجيلة** : أداةٌ يدخَّن بها التبغ ، وكانت قاعدتها في الأصل من جوز الهند ، ثم اتُّخذت من الزجاج ونحوه أيضاً .

(٣) ملاحظة : خمسة فصول كانت في الأصل بالأردوية ، وتشتمل هذه الطبعة على سبعة فصول مع إضافة المحقق فصلين إليه .

الفصل الأوَّل

الآيات القُرآنيَّـة
والأحاديث النبويَّـة
في التَّوحيد[1]

(١) من إضافات المحقِّق إلى الكتاب .

الآيات

قال الله تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٧٩ .

(٦) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .

وقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠١ـ١٠٢ .
(٢) سورة الحشر ، الآية : ٢٢ـ٢٣ـ٢٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٤) سورة الإخلاص .
(٥) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .
(٦) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

وقال يوسف عليه السَّلام : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة يوسف ، الآية : ٢٩ ـ ٣٠ .

الأحاديث

١ ـ عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنَ عَبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لَمَّا بَعَثَ النَّبيُّ ﷺ مُعاذَ بْنَ جَبَلٍ إلى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَن قَالَ لَهُ : « **إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى ، فإذا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتَرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ ، فَإِذا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ و تَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ** »[١] .

٢ ـ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « **يا مُعَاذَ ! أَتَدْرِي ما حَقُّ اللهِ على الْعِبَادِ** » ، قَالَ : اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **أَنْ يَعْبُدُوْهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** » « **أَتَدْرِي ما حَقُّهُمْ عَلَيْهِ** » قَالَ : اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ** »[٢] .

٣ ـ عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « **مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ ، لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ، لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ ، ولا يَعْلَمُ ما في غَدٍ إِلَّا اللهُ ، وَلا يَعْلَمُ مَتى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ**

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، رقم الحديث (٦٨٢٤) .
(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، رقم الحديث (٦٨٢٥) .

بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ إلَّا اللهُ ، ولا يَعْلَمُ مَتى تَقُومُ السَّاعَةُ إلَّا اللهُ »[١] .

٤ ـ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضي الله عَنْه أنَّهُ قَالَ : صَلَّى لَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَة عَلَى إثْرِ سَمَاءٍ . كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : « هَلْ تَدْرُوْنَ ماذا قَالَ رَبُّكُمْ » قَالُوا : اللهُ وَرَسُوْلُهُ أعْلَمُ ، قَالَ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فأمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذٰلِكَ مُؤْمنٌ بي وكَافِرٌ بِالْكَوْكَب ، وأمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءٍ كَذَا وكَذا فَذٰلِكَ كافِرٌ بي ، ومُؤْمِنٌ بالْكَوْكَبِ »[٢] .

٥ ـ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْن الحَكَمِ رضي الله عنه قَالَ : يا رَسُولَ الله إنِّي حَديثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بالإسْلام ، وإنَّ مِنَّا رِجالًا يَأتُوْنَ الكُهَّانَ ، قال : « فلا تَأْتِهِمْ » قَالَ : ومِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُوْنَ ، قالَ : « ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُوْنَهُ في صُدُوْرِهِمْ فَلا يَصُدَّنَّهُمْ » قَالَ : قُلْتُ : ومِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ ، قال : « كَان نَبيٌّ[٣] من الأنبياء يخُطُّ ، فَمنْ وَافَقَ خَطَّهُ فذاكَ »[٤] .

٦ ـ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « لا عَدْوَى ، ولا طِيَرَةَ ، ولا هَامَةَ ، ولا صَفَرَ »[٥] .

٧ ـ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : قال : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْماً فَقَالَ : « يا غُلامَ ! إنِّي أعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ، رقم الحديث (٦٨٣١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان ، رقم الحديث (٨٠١) .

(٣) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، رقم الحديث (٨٣٦) .

(٤) قيل : هو إدريس أو دانيال عليهما السلام .

(٥) رواه البخاري في كتاب الطب ، رقم الحديث (٥٣١٦) .

احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوْكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوْا عَلى أَنْ يَضُرُّوْكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوْكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[1] .

٨ ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّها ، حَتَّى يَسْأَلَ شِسعَ نَعْلِهِ إذا انْقَطَعَ »[2] .

٩ ـ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ وَ في عُنُقِي صَلِيْبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَال : « يا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ » . وسَمِعْتُهُ يَقْرَأ في سُورَةِ بَراءةٌ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[3] قالَ : أما إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونوا يَعْبُدُوْنَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إذا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئاً اسْتَحَلُّوْهُ ، وإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِم شَيْئاً حَرَّمُوهُ »[4] .

١٠ ـ عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بن عُبَادَةَ الأنصاري رضي الله عنهما قال : أَتَيْتُ الحِيْرَةَ[5] فَرَأَيْتُهم يَسْجُدُوْنَ لمَرْزُبَانٍ[6] لهم ، فقلتُ : لرسول الله أحقُّ أن يَسْجُدُوْا له ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ ، فقلتُ : إنِّي أتيتُ الحِيْرَةَ فرأيْتُهم يَسْجُدُوْنَ لِمَرْزُبَانٍ لهم ، فأنتَ أحقُّ أن يُسْجَدَ لكَ ، فقال [ﷺ]

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ، رقم الحديث (٢٤٤٠) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٢) رواه الترمذي في الدعوات ، رقم الحديث (٣٥٣٦) ، وقال : هذا حديث غريب .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣١ .
(٤) رواه الترمذي في تفسير القرآن ، رقم الحديث (٣٠٢٠) ، وقال : هذا حديث غريب .
(٥) **الحيرة** : مدينة كانت تقع قرب الكوفة ، خربت ، ثم قامت على أنقاضها مدينة « نجف » .
(٦) **مَرْزُبان** : كلمة فارسية بمعنى الرئيس من الفرس .

لِي : « **أرَأيْتَ لو مَرَرْتَ بِقَبْرِي أكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ ؟** » فقلتُ : لا ، فقال : « **لا تَفْعَلُوا** »[1] .

١١ ـ وعنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم رضي الله عنه قال : أَتى رسولَ اللهِ ﷺ أعرابيٌّ ، فقال : جُهِدَتِ الأنْفُسُ ، وجَاعَ العِيَالُ ، ونَكَهَتِ الأمْوَالُ ، وهَلَكَتِ الأنْعامُ ، فاسْتَسْقِ اللهَ لنا ، فإنَّها نَسْتَشْفِعُ بكَ على الله ، ونَسْتشفع بالله عليك ، فقال النبيُّ ﷺ : « **سُبْحَانَ اللهِ ، سُبْحانَ اللهِ** » فما زالَ يُسَبِّحُ حتى عُرِفَ ذلك في وُجوه أصْحَابه ، ثمَّ قال : « **وَيْحَك ، إنَّه لا يُسْتَشْفَعُ باللهِ على أحدٍ من خَلْقِه ، شَأْنُ اللهِ أعْظَمُ مِن ذلكَ** »[2] .

١٢ ـ عن الرُّبَيِّع بِنت مُعَوِّذ بْنِ عَفْرَاءَ رضي الله عنها قالتْ : جاء النبيُّ ﷺ فدَخَلَ حين بُنِيَ عليَّ فجلسَ على فِرَاشي كمَجْلِسِكَ مِنِّي ، فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَّاتٌ لنا يَضْرِبْنَ بالدَّفِّ وَيَنْدِبْنَ مَن قُتِلَ مِنْ آبَاءِئي يَوْمَ بَدْرٍ ، إذْ قالتْ إحْداهُنَّ ، وفِينا نبيٌّ يَعْلَمُ ما في غَدٍ ، فقال : « **دَعِيْ هذه ، وقُوْلِي بالَّذي كُنْتِ تَقُوْلِيْن** »[3] .

١٣ ـ عن ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ ابْن عُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ قالا : قال رسولُ الله ﷺ : « **لا تُطْرُوْنِي**[4] **كما أَطْرَتِ النَّصَارى عِيْسَى بْنِ مَريمَ عليه السَّلام ، إنَّما أنا عَبْدُهُ ورَسُوْلُهُ** »[5] .

١٤ ـ عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ : « **لا يَقُوْلَنَّ**

---

(١) رواه أبو داود في كتاب النكاح ، رقم الحديث (١٨٢٨) .
(٢) انفرد به أبو داود وأخرجه في كتاب السنة ، رقم الحديث (٤١٠١) .
(٣) انظر تخريج هذا الحديث في صفحة (١٠٨) .
(٤) الإطراء : مجاوزة الحدِّ في المدح والكذب فيه .
(٥) انظر تخريج هذا الحديث في صفحة (١٦٨) .

أَحَدُكُمْ : عَبْدي ، وأَمَتِي ، كُلُّكُمْ عُبَيْدُ اللهِ ، وكُلُّ نِسَاءِكُمْ إمَاءُ اللهِ ، ولكنْ لِيَقُلْ : غُلامي ، وجَارِيَتي ، وفَتَاي ، وفَتَاتِي ، ولا يَقُلِ الْعَبْدُ : رَبِّي ، ولِيَقُلْ : سَيِّدي ، ومَوْلاي » وفي رواية : « لا يَقُل العبدُ لسيِّده : مَوْلاي ، فإنَّ مَوْلاكم اللهُ »[1] .

١٥ ـ عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « أَلا إنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوْا بآبَائِكم ، فَمَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِف باللهِ ، وإلَّا فَلْيَصْمُتْ »[2] .

١٦ ـ عَنْ عَابِسِ بْن رَبِيْعَةَ رضي الله عنه قالَ : رأيتُ عُمَرَ بْن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ يُقَبِّلُ الحَجَرَ (يعني الحَجَرَ الأسْوَدَ) ، ويقولُ : إنِّي لأَعْلَمُ أَنَّكَ صَخرٌ لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ، ولَوْلا أَنِّي رأَيْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ »[3] .

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيره ، رقم الحديث (٤١٧٨) ، وأحمد في مسنده (باقي مسند المكثرين) (٩٨٩١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب ، رقم الحديث (٥٦٤٣) ، ومسلم في كتاب الأيمان ، (٣١٠٥) و(٣١٠٦) والترمذي في كتاب النذور والأيمان (١٤٥٤) ، والنسائي في كتاب الأيمان والنذور (٣٧٠٨) ، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور (٢٨٢٨) ، وابن ماجه في كتاب الكفارات (٢٠٨٥) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الحج ، رقم الحديث (١٤٩٤) ، ومسلم في كتاب الحج ، (٢٢٢٨) و(٢٢٢٩) ، و(٢٢٣٠) و(٢٢٣١) ، والترمذي في كتاب الحج ، (٧٨٨) ، والنسائي في كتاب مناسك الحج ، (٢٨٨٨) و(٢٨٨٩) ، وأبو داود في كتاب المناسك ، (١٥٩٧) وابن ماجه في كتاب المناسك ، (٢٩٣٤) .

الفصل الثاني

في

عقيدة التوحيد

أَثَرُها في الحياة ، وصَدَاها في العالم ، وأثرها في الدِّيانات الأخرى[1]

(١) من إضافات المحقِّق إلى الكتاب .

عقيدة التوحيد النقيّة الواضِحة

نتناولُ منحة الإسلام الأولى ، ومأثرة محمَّد ﷺ الكبرى ، وهو : أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية ، فهي عقيدةٌ ثائرةٌ ، معجزة ، متدفقة بالقوَّة والحياة ، مقلبةٌ للأوضاع ، مدمِّرةٌ للآلهة الباطلة ، لم تَنَلْ ، ولن تَنَالَ الإنسانيةُ مثلها إلى يوم القيامة .

الشِّرك والوثنيّة وأثرُهما في حياة الإنسان :

هذا الإنسان الذي يحمل دَعَاوَى فارغة ، ومزاعم جوفاء ، من الشِّعر ، والفلسفة ، والسِّياسة ، والاجتماع ، والذي استعبد الأمم والبلاد مراراً كثيرة ، والذي حوَّل الأحجار الصماء أزهاراً عبقةً فيحاء ، وفجَّر الأنهار من بُطون الجبال ، والذي ادَّعى الربوبية أحياناً ، هذا الإنسان كان يسجدُ لأشياء تافهة لا تضرُّ ، ولا تنفع ، ولا تُعطي ، ولا تمنع . ﴿ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[1] . وكان يركعُ أمام أشياء صَنَعَها بنفسه ، ويخافها ، ويرجو منها الخيرَ .

إنه لم يخرَّ ساجداً للجِبال ، والأنهار ، والأشجار ، والحيوانات ، والأرواح ، والشَّياطين ، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب ، بل سجد

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٣ .

للحشرات ، والدِّيْدَان أيضاً ، وقَضى حياتَه كلَّها بين هَوَاجِس ، ووَسَاوِس ، وبين أخيلة ، وأوهام ، وأمانٍ ، وأحلام ، كانت نتيجته الطبيعية الجبن ، والوهن ، والفوضى الفكرية ، والقلق النفسي . وفَقْدِ الثقة ، وعدم الاستقرار ، وامتازت الهند البرهمية بصفة خاصة ـ بكثرة المعبودات ، والآلهة ، والإلاهات ، وقد بَلَغَتِ الوثنيةُ أوجَها في القرن السادس المسيحي ، فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن إلى ٣٣٠ مليون[١] ، وقد أصبح كلُّ شيء هائل ، وكلُّ شيء نافع إلهاً يعبد .

عقيدة التوحيد وأثَرُها في الحياة :

أعلن القرآنُ والرسالة المحمدية : أنَّ هذا العالم ليس بلا ملك ولا دولة مشتركة لعدد من الملوك ، بل له ملك واحدٌ ، وهو : خَالِقه ، وصَانِعه ، وحَاكِمه ، ومدبِّره ، له الخلق والأمر كلُّه ، وله الحُكم ، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[٢] ولا يحدث في هذا العالم شيءٌ إلا بأمره وقدرته ، وإنَّ العلَّة الحقيقية لوجوده هي إرادته ، وقدرته ، إنَّ هذا الكون كلَّه خاضعٌ له في كونه ووجوده ، ومنقاد له ، وطوع أمره ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣] وعلى المخلوقات الَّتي تملك إرادةً واختياراً أن تخضع له ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[٤] .

وإنَّ الأثر العقلي الأوَّل الذي يترتَّب من هذه العقيدة على الإنسان هو

---

(١) راجع « **الهند القديمة** » لمؤلفه آر ، سي ، دت (R.C.Dutt) :
Ancient India, Vol. 111 P.276 (1891), & L.S.S.O Malley; **Popular Hindusim - The Religion of Masses** - Cambridge (1935).

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٨٣ .

(٤) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

أنَّ العالم كلَّه تابعٌ لمركزٍ ونظامٍ واحد ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، ثم بعد هذه العقيدة يستطيع الإنسان أن يأتي بتفسيرٍ كامل للحياة ، وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمة وبصيرة .

فأغنى ﷺ الإنسانَ ، بعقيدةٍ صافيةٍ نقيةٍ ، سهلةٍ ، سائغةٍ ، حافزةٍ للهمم ، باعثةٍ للحياة ، فتخلَّص من كل خوفٍ ، ووجلٍ ، وصار لا يخافُ أحداً إلا الله ، وعَلِمَ عِلْمَ اليقين : أنَّه وحده هو الضارُّ ، والنافِع ، والمُعطي ، والمانِع ، وأنَّه وحده الكفيل لحاجات البشر ، فتغيَّر العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة ، والاكتشاف الجديد ، وصار مصوناً عن كلِّ نوعٍ من العبودية والرقِّ ، وعن كلِّ رجاءٍ وخوف من المخلوق ، وعن كل ما يشتِّت البالَ ، ويشوِّش الأفكارَ ، فقد شعر بوحدةٍ في هذه الكثرة ، واعتبر نفسه أشرف خلق الله ، وسيِّد هذه الأرض ، وخليفة الله فيها ، يُطيع ربَّه وخالقه ، وينفِّذ أوامَره ، ويحقِّق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم ، والعظمة الإنسانية الخالدة ، التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد .

صَدَى عقيدةِ التوحيد في العالم وأثَرُها في الدِّيَانَات :

إنَّها البعثة المحمَّديَّة التي أتْحَفَتِ الإنسانية بهذه التحفة النادرة ـ عقيدة التوحيد ـ التي كانت مجهولةً ، مغمورةً ، مظلومةً ، مغبونةً أكثر من أي عقيدة في العالم ، ثم رَدَّدَ صَدَاها العالم كلُّه ، وتأثَّرت بها الفلسفاتُ والدعواتُ العالميَّة كلُّها في قليلٍ ، أو كثير .

إنَّ بعض الديانات الكبيرة التي نَشَأَتْ على الشرك ، وتعدُّدِ الآلهة ، وامْتَزَجَتْ به لحماً ودماً ، اضطرَّت في الأخير إلى أن تعترف ـ ولو بصَوْتٍ

خَافِتٍ وهمسة في الآذان ـ بأنَّ الله واحدٌ لا شريك له ، وارغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفياً ، يبرَئّها من تهمة الشرك ، والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام ، وبدأ رجالها وسَدَنَتُها يستحيون من الاعتراف بالشرك ويخجلون من ذكره ، وأصِيْبَتْ هذه الأنظمة المشركة كلها « بمركب النقص » والشُّعور بالصغار والهوان ، (Inferiority Complex) فكانت هذه التحفةُ أغلى التُحَفِ التي سَعِدَتْ بها الإنسانيةُ بفضل بعثته ﷺ .

وقد أجَاد أستاذُنا العلامة السيِّد سُليمان الندوي[1] عَرْضَ هذه الحقيقة العقدية النفسية ، ودورها في تربية الإنسان ، وتوجيه المدنية . يقول في كتابه الجليل الطائر الصيت : « سيرة النبيِّ »[2] :

« إنَّ الأمم التي لا عهدَ لها بعقيدة التوحيد لم تَكَدْ تعرف معنى

---

(١) كان من كبار علماء العالم الإسلامي في عهده على الإطلاق ، ومن كبار قادة الفكر الإسلامي ، ومن النوابغ والأدباء والكُتّاب ، ومن قادة حركة التحرير في الهند ، وكان راسخاً في العلوم العربية وآدابها ، عالي الكعب ، دقيق النظر في علوم القرآن وعلم التوحيد والكلام ، واسع الاطلاع . غزير المادة في التاريخ ، وعلم الاجتماع والمدنية ، وكان من كبار المؤلفين في السيرة النبوية في هذا العصر ، اعترف وأعجب به عدد من نوابغ العصر مثل شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال وغيره ، درسَ في دار العلوم ـ ندوة العلماء ، ثم درَّس فيها مدة طويلةً ، توفي بمدينة كراجي عام ١٣٧٣هـ . راجع « **السيِّد سليمان الندوي أمير علماء الهند في عصره ، وشيخ النَّدْوِيين** » تأليف الدكتور محمد أكرم الندوي ، طبع دار القلم ، دمشق .

(٢) وهو كتاب قيِّم في السيرة النبوية باللغة الأردوية ، يحتوي على سبع مجلَّدات ضخمة ، ألَّف المجلَّدين الأولين منها العلاَّمة شبلي النعماني ، وقام العلامة سليمان الندوي بتأليف المجلدات الخمسة الباقية . ومن مزايا هذا الكتاب ـ كما قال العلاَّمة أبو الحسن الندوي ـ أنه وسَّع نطاق السيرة من سرد الأحداث ، وبيان الشمائل ، ووصف العادات ، إلى الرسالة المحمدية ، والتعليمات النبوية ، والشريعة الإسلامية وبحث شعبها المختلفة . (« **شخصيات وكُتب** » للعلاَّمة الندوي ، صفحة : ٦٩) .

الإسلام بدَّد الظلمات ، وعرف الناسُ لأوَّل مرة عقيدة التوحيد ، ومعنى الأخوة الإنسانية التي رَأَبَتِ التصدُّعات ، وأزَالَتِ المعايِيرَ المصطنعة ، وبهذه العقيدة أدركَ الإنسانُ ما سُلِبَ منه حقُّه في التساوي .

والتاريخ خير شاهدٌ ما لهذه العقيدة من نتائج إيجابية فعالة ، ومدى تأثيرها في عقلية الأمم والشعوب التي اعترفت ـ سواء رضيت أو كرهت ـ بفضل هذه العقيدة ، وإن كانت لا تزالُ تجهلُ جميع معانيها ونفوذها الواقعي في تغير الأقدار والمَعَايِير ، إنها ـ أي : تلك الشهوب التي لا تؤمن بمبدأ التوحيد ـ تفقد حتى زمننا هذا المبدأ الصادق للمساواة الإنسانية ، فليس أن لا تَرَى مظاهرها في مجتمعاتهم ونواديهم فحسب ، بل إنَّك ستفقد مظهر المساواة حتى في معابدهم ، حيث يُوَاجِهُ رُوَّادُها أُسَسَ إنزال النَّاس حِسب منازلهم (البُرُوْتوكُول)[1] ولا شك : أنَّ المسلمين في خير ، فقد عرفوا هذا المبدأ منذ ثلاثة عشر قرناً ، بفضل عقيدتهم بوحدانية ربِّهم العَلَيِّ القدير ، وقد تحرَّروا من المعايير المصطنعة ، والمستويات الموضوعة ، والناس عند الإسلام سواسية كأسنان المشط ، لا يفرقهم اللون ، أو الوطن ، ولا يميِّز بينهم القومية ، والوطنية ، وقفوا أمام ربِّهم وهم ساجدون ، أذلة خاضعون ، وإذا تعاملوا في حياتهم فإذا هم شُرفاء متساوون ، لا تفاوتَ بينهم إلا بالإيمان ، لا فَضْلَ لأحدٍ إلا بالعمل ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] .

---

(١) البُرُوتُوكول : المسوَّدة الأصلية تُصاغ على أساسها معاهدة أو اتفاقية .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ . انظر « السيرة النبوية » للعلامة السيد سليمان الندوي ، الجزء الرابع ، صفحة ٥٢٣ : (والقطعة من تعريب الدكتور عبد الله عباس الندوي) .

أثر عقيدة التوحيد الإسلامية في الهند :

يقول الباحثُ الهنديّ المعروف [ك . م . بَانِيْكَرْ] (K.M. Panikkar) وهو يتحدَّث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ، ودِياناته :

« من الواضح المقرَّر : أنَّ تأثير الإسلام في الدِّيانة الهِنْدُوكِيَّة كان عميقاً في هذا العهد [الإسلامي] ، إنَّ فكرة عبادة الله في الهَنَادِك مدينةٌ للإسلام ، إنَّ قادة الفكر والدين في هذا العصر ـ وإن سَمَّوا آلهتَهم بأسماء شتَّى ـ قد دَعَوا إلى عبادة الله ، وصَرَحُوا بأنَّ الإله واحد ، وهو يستحقُّ العبادةَ ، ومنه تُطلب النجاةُ ، والسعادةُ ، وقد ظهر هذا التأثير في الدِّيانات والدعوات التي تظهرت في الهند في العهد الإسلامي كدِيَانة [بَهكْتِي] (Bhagti) ودعوة كَبِيْر دَاسْ[١] »[٢] .

وكذلك الشأنُ مع الفِرقة التي تُسَمَّى السِّيخ (Sikhs) ، والَّتي لَعِبَتْ دوراً خطيراً في المجال السِّيَاسي ، والعسكري ، والاجتماعي في المجتمع الهندوسي العام ، فممَّا يثبت من تاريخ هذه الطائفة : أنَّ الغاية الرئيسية لنشوء هذا المذهب في الديانة الهندوكية إنما كانت تطهير العقائد الدينية ، وأنَّ مُنشىء هذه الدِّيانة « بَابَا نَانَكْ »[٣] كان قد تأثر بتعاليم

---

(١) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندي ويدعو إلى الإصلاح ، واختلف الناس في ديانته ، مات عام ١٥١٨م .

(٢) **A Survey of Indian History**, p. 132.

(٣) وقد قامت في الهند في القرن الخامس عشر الميلادي طائفة من المُصلحين الهندوس ، وكان غرضهم إصلاح بعض العقائد والتقاليد الهندوسية القديمة ، مثل عبادة الأوثان ونظام الطبقات ، وتقديم القرابين للآلهة ، ومنهم « بَابَك نَانَك » المعروف بـ « جُورُو نَانَكْ » و« بَابَا كبيرداس » ومهاتما « جايتنيا » وأمثالهم من الذين تأثروا بمبادىء الإسلام القائمة على التوحيد والمساواة والمحبة والتسامح . وكان « بَابَا نَانَكْ » أكثرهم أثراً في دعوته =

الإسلام ، وكان قد تلقّى دراسته في اللغة الفارسية والدين عن رَجُلٍ مسلم معروف بالصَّلاح اسمُه : سَيّد حَسَنْ ، وكان موضع عنايته ، وعطفه ، وقد ذُكرت أسماء أخرى من شيوخه ، وأساتذته المسلمين ، يبلغ عَدَدُها إلى سِتَّة أشخاص ، ويُروى أنه زَارَ الحرمين الشريفين ، وقضى أياماً في بغداد ، وكانت له صلة خاصة بالشيخ فريد[1] من كبار مشايخ الطُّرُق في بَنْجَاب[2] ، وان بَابَا نَانَكْ يركّز في دعوته وتعليمه على عقيدة التوحيد ، والمساواة البشرية ، والاجتناب عن عبادة الأصنام والوثنية[3] .

ويقول [الدكتور تَارَا جَنْد] (Dr. Tarachand) في كتابه « أثر الإسلام على الثقافة الهندية »[4] محيلاً إلى كتابه الديانة الهندية[5] لمؤلفه (Barith) :

« مما يجبُ إعادته أنَّ المدارس الدِّينية والفلسفية في جُنوب الهند كان كل كوحدةٍ مقتبساً من النظم الفكرية القديمة ، ولكن كانت من حيث المجموع أو الترجيحات الخاصة مرآة للأثر الإسلامي ، وتجعل من المعقولِ أنَّها تأثرت بالإسلام »[6] .

= الإصلاحية والتوحيدية ، والتفَّ حوله أتباع كثيرون حتى نشأ مذهب مستقل جديد حسب مبادىء دعوته وهو المذهب السيخي أو الديانة السيخية كما اصطلح عليه الآن ، توفي « بابا نانك » سنة ١٥٣٨م .

(١) لم نعثر على ترجمته .

(٢) **بَنْجَاب** : ولاية هندية وهي الآن مركز ديانة السيخ . يقع قسم كبير منها في باكستان أيضاً .

(٣) ليراجع للتفصيل :

Macauliffe: **The Sikh, Religion** Seva Ram Siungh: **Life of Gurn Nanak.**

(٤) **Influence of Islam on Indian Culture.**

(٥) **Religion of India.**

(٦) **أثر الإسلام على الثقافة الهندية** ، صفحة : ١٠٧ .

أثر عقيدة التَّوحيد في العالم المسيحي :

يقول الأستاذ أحمد أمين[1] :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام ، من ذلك : أنَّه في القرن الثامن الميلادي ـ أي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ـ ظهرت في سبتمانيا[2] (Septimania) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القِسَس ، وأن ليس للقسس حق في ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده في غُفران ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعي ألا يكون فيه اعتراف » .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصُّور والتماثيل الدينية (Iconoclast) ذلك : أنه في القرن الثامن ، والتاسع للميلاد ، أو القرن الثالث ، والرابع الهجري ، ظهر مذهبٌ نصرانيٌّ يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدرَ الإمبراطورُ الرومانيُّ « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦م ، يحرِّم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان قسطنطين الخامس و« ليو » الرابع ، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث ، وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيِّدي عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاعٌ شديدٌ لا محل لتفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض

---

(١) كان من كبار المنشئين والمؤلفين في هذا العصر ، ويُعدُّ من أبرز الكُتَّاب الباحثين الذين تمتاز كتاباتهم بالروعة والسهولة والملاحة . انحرف في بعض آراءه وخالفه فيه العلماء ، كان عميداً بكلية الآداب في جامعة القاهرة ، وبعد ذلك مديراً للإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، وكان رئيساً للجنة التأليف والترجمة والنشر ، توفي عام ١٩٥٤م ، وله مؤلَّفات في الأدب والتاريخ .

(٢) **سبتمانيا** : مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

المؤرخين يذكرون : أنَّ الدعوة إلى نَبْذِ الصُّور والتَّماثِيل كانت متأثرةً بالإسلام . ويقولون : إن كلوديوس (Claudius) أُسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣هـ) والذي كان يحرق الصور والصلبان ، وينهى عن عبادتها في أسقفيته ، وُلِدَ ورُبِّيَ في الأندلس الإسلامية . وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة .

رَوَى البخاريُّ ومُسْلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سترت سَهْوة[١] لي بقِرَام[٢] فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتَلَوَّنَ وَجْهُهُ ، وقال : **يا عائشة ! أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله !** وقالت : فقطعناه ، فجعلنا منه وِسادة أو وِسادتين »[٣] . والأحاديث في هذا الباب مستفيضة .

وكذلك وُجِدَتْ طائفة من النصارى[٤] شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهِية المسيح عليه السلام »[٥] .

ويمكن لِمن يُطَالِع تاريخ أوربَّا الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسْقُفِي السائد ، أمَّا دعوة « لوثر » الإصلاحية التي ظهرت في القرن السادس عشر المسيحي ، فقط ظهرت فيها انعكاسات خفيفة لتعاليم الإسلام ودوره في الإصلاح ، كما تظهر انعكاسات لضوء في مكان بعيد

---

(١) **السَّهْوَة** : النافذة بين الدارين .

(٢) **القِرام** : السترة .

(٣) رواه **البخاري** في كتاب اللباس ، رقم الحديث (٥٤٩٨) . **والنسائي** في كتاب الزينة ، (٥٢٦١) ، و(٥٢٦٨) ، **وأحمد** في مسنده (مسند باقي الأنصار) (٢٢٩٥٢) و(٣٣٩٥) و(٢٤٦٥٥) .

(٤) Haine s, **Christianity & Islam in Spain**. p. 116.

(٥) ضحى الإسلام الجزء الأول صفحة ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

تخرق أشعته الحجب الكثيفة الحاجزة ، من خضوع عقلية القرون المتوسطة للمثل القديمة ، وضغط الكنيسة ، كما يقول الكاتب المسيحي الفاضل [ج . بَاسْ مَولِيْنجَرْ] (J,Bass Mullingers)[١] ولشدة نفوذ بولس (A.D. 56-10) (Paul) وعلى النصرانية ، وخضوعها لأفكاره وتفسيره للعقيدة النصرانية كما يقول أرنست دي بنسن [٢](Ernest de Bunsen) .

وتنطوي البَرُوتستانية التي تزعمها لَوْثَرْ على أفكار تحريرية في الأمور الدنيوي والدينية ، وكذلك في إعطاء الفرد حرية التقدير ، والحكم على الأمور ، وفي التسامح الديني ، وهذا مضاد للتقليد ، وللسلطة الدينية ، والروح البروتستانية هي في مسؤولية الفرد تِجاه الله وحده ، وليس تِجاه الكنيسة .

لماذا أخفقت هذه الجهود ولم تأتِ بالنتيجة المطلوبة ؟

ولابدَّ هنا من تنبيه على حقيقةٍ خالدةٍ أثْبَتَها تاريخُ الديانات ، وقرَّرتها نفسية الأمم ، وهو أنَّ الحركة الإصلاحية الثورية الجذرية في ديانات أصِيْبَتْ بتحريف ، أو انحراف جُذْري ـ مهما بلغ القائمون بها والدعاة إلى هذه الحركة من الإخلاص والجهد ـ إذا لم تَقُمْ بانفصال واضح عن هذه الديانات المنحرفة أو المحرفة ، والتبرُّؤ منها ، وبقيت هذه الفرقة مندمجة في مجتمعها الديني الكبير ، الذي أنكرت على عقائده الرئيسية الأساسية ، وأخذت بمبدأ التسامح الذي لا مساغَ له ، كان مَصِير هذه الفِرَق والدَّعوات الذوبان في هذه الديانة أخيراً ، وذهبت كل المساعي ،

---

(١) راجع **دائرة معارف بريطانية** ، مقال ج باس مولنجر عن « مارتن لوثر » .

(٢) راجع كتاب : **Islam or true Chritianity**, Ernest debunsen.

والجهود التي قام بها زعماء هذه الحركات الإصلاحية والثورية أدراج الرياح، وهذا شأن الحركات الثورية في الديانة المسيحية وحركات الدعوة إلى التوحيد والمساواة البشريَّة الَّتي نَشَأتْ في الهند ، وأشَرْنَا إليها .

ولذلك كان موقف الأنبياء السَّابقين وموقف الدِّين الإسلامي واضحاً صريحاً لا لُبْسَ فيه ، ولا غموضَ ، قوياً لا ضعف فيه ، ولا تردُّد ، قد تجلَّى ذلك في قول سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام والمُؤمنين معه للمُشركين في عصرهم ، الذي نَقَلُه القرآنُ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

ولم يكن ذلك مقصوراً على عصرٍ أو مجتمع ، بل وَصَّى بذلك إبراهيمُ أتباعَه ، وخلفه وراءه ، يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2] .

وبفضل ذلك بقي الإسلام ديناً واضحاً معيناً محافظاً على رُوْحه وتعاليمه إلى هذه السَّاعة ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[3][4] .

* * *

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٦ ـ ٢٨ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٤٢ .

(٤) من كتاب « **الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية** » للعلامة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٢٠ ـ ٣٥) طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الفصل الثالث

في
التحذير من الشِّرك

التحذير من الشِّرك

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[1] .

الفرق بين الشرك ، وسائر الذنوب :

اعْلم أن هنالك أنواعاً من الذنوب والآثام ، يقترفها الناسُ إذا جمحت بهم النفوسُ ، وغلبهم الهوى ، فمنهم من لا يميز بين حلال وحرام ، ومنهم من يقترف سرقة أو عملاً من أعمال الفسوق ، أو يترك الصلاة والصيام ، أو لا يأتي بما فرض الله عليه من حقوق الأهل والعِيال ، أو يُسيء إلى والديه ، ويغلظ القول لهما ، ولكن الذي تورَّط في الشرك قد أسرف ، وظلم نفسه ظلماً مبيناً ، لأنه قد جنى جناية لا يغفرها الله ، أما الذنوب والآثام الأخرى ، فربَّما يغفرها الله ، ويتجاوز عنها ، ولكن الشرك ، لا بد أن يوفى حسابه .

الشرك ظلم ، ووضع للشيء في غير محلِّه :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٦ .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ١٣ .

وقد هَدَتْ لقمانَ الحكمةُ العميقة التي أكرمه الله وخصَّه بها ، إلى أن أفحش الظلم أن يجود الإنسان على أحد بحق غيره ، فمن أعطى حق الله لأحد خلقه فقد عمد إلى حق أكبر كبير ، فأعطاه أذلَّ ذليل ، وكان رجل وضع تاج الملك على مفرق إسكاف[1] ، وأي جور أكبر من هذا الجور وأي ظلم أفحش من هذا الظلم ؟ .

وليعلم يقيناً أن كل مخلوق كبيراً كان أو صغيراً هو أذل من إسْكَاف ، أما عظمة الله وجلالته ، وقد دلَّت الآية ، وشهد به الشرع والعقل السليم ، أن الشرك أقبح العيوب ، وما زال الناس يعتبرون إساءة الأدب مع كبرائهم وسادتهم أكبر عيب وأعظم خرق ، فلما كان تبارك وتعالى أكبر من كل كبير ، كانت إساءة الأدب إليه ، والإشراك معه عيباً ليس فوقه عيب ، وخَرْقاً لا يفوقه خرق ، وقد اتفقت جميع الشرائع على المنع من الشرك ، والأمر بالتوحيد ، وهو الصراط المستقيم ، وطريق النجاة ، وكل ما عداها من طُرق وسُبل ، فهي طرق الضلال ، والسبل المردية ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2] .

إن الله لا يقبل إلا خالصاً ، ليس لأحدٍ فيه نصيب :

أخرج مُسلم عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال اللهُ تعالى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيْهِ مَعي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ، وأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ** »[3] .

---

(١) **الإسكاف** : الخرَّاز ، وصانع الأحذية ومُصلحها .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٥ .

(٣) رواه **مسلم في كتاب الزهد** ، رقم الحديث (٢٩٨٥) ، **وابن ماجه في كتاب الزهد** ، رقم=

وقد دلَّ هذا الحديث على أن الله تعالى لا يقبل عملاً أُشرك فيه معه غيره ، فلا يقبل عبادة المشرك بل يتبرَّأ منها ، وليس شأنه شأن الذين يأخذون نصيبهم من الشيء المشترك بينهم وبين غيرهم ، فإنه أَغنى من كل غني ، وأغير من كل غيور ، فلا يقبل إلا خالصاً مخلصاً ، ليس لأحد فيه سهم أو نصيب .

عهد سبق في عالم الأرواح :

أخرج أحمد عن أُبَيِّ بْنِ كَعْب رضي الله عنه في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[1] .

« قال : جمعهم فجعلهم أرْواحاً ، ثم صوَّرهم ، فاستنطقهم ، فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قال : فإني أشهد عليكم السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام ، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا ربَّ غيري ، ولا تشركوا بي شيئا ، إني سأرسل إليكم رسلي يذكِّرونكم عهدي وميثاقي ، وأُنزل عليكم كُتبي ، قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا ربَّ لنا غيرك ، [فأقرُّوا بذلك ورفع عليهم آدم ينظر إليهم ، فرأى الغَنِيَّ والفقير ، وحَسَنَ الصُّوْرَةِ ودون ذلك . فقال : ربِّ لولا سوَّيتَ بين عبادك ؟ قال : إني أحببتُ أن أُشْكَرَ وأرى الأنبياء فيهم مثل السُّرج عليهم النور ، خصوا

= الحديث (٤٢٠٢) ، وصحيح ابن حبان (٣٩٥) ، صحيح ابن خزيمة ، الجزء الثاني ، صفحة : ٦٧ ، رقم الحديث (٢/٦٧) (٩٣٨) ، ومسند أبي يعلى ، الجزء الحادي عشر ، صفحة ٤٣٠ رقم الحديث (٦٥٥٢) .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

بميثاق آخر في الرسالة والنبوة وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[1] كان في تلك الأرواح ، فأرسله إلى مريم فحدَّث عن أُبَيٍّ أنه دخل مِن فيها »[2]] .

وقد فسَّر أبي بن كعب رضي الله عنه الآية تفسيراً واضحاً ، وذكر أن الله سبحانه وتعالى قد صنف أولاد آدم أصنافاً ، فكانت طائفة من الأنبياء ، وطائفة من الأولياء ، وطائفة من الشهداء ، وطائفة من الصُّلحاء ، وطائفة من المطيعين ، وطائفة من العصاة والفاسقين ، وطائفة من الكفار كاليهود والنصارى ، والمجوس والمشركين ، وأبرز هذه الطوائف في الصُّور والأجسام التي أراد خلقها ، منها الوسيم ومنها الدميم ، ومنها الأصم ، ومنها الأعور ، ومنها الأعمى ، ثم وهبها النطق ، ثم قال لها : ألستُ بربِّكم ؟ فأقرت جميعاً ، وقالت : بلى ! أنت ربُّنا ، ثم أخذ منها العهد والميثاق ، أن لا تشرك في ملكه وحكمه أحداً ، وأن لا تتخذ غيره ربّاً وإلهاً ، فقبلته جميعاً وأعطت العهد والميثاق ، وأشهد الله على ذلك السماوات والأرض وأباهم آدم ، وقال : سيبعث الأنبياء ليذكروا بهذا العهد والميثاق ، وسيحملون الكُتب السماوية ، وأقرت كل طائفة على حِدة بالتوحيد ، وتبرأت من الشرك ، فظهر من ذلك أنه لا مسوغ للاحتجاج بكلام عالم أو شيخ ، أو كلام آباء وأجداد ، أو ملوك وسلاطين .

وإن قال قائل : لقد نسينا في هذه الحياة كل ما جرى في عالم الأرواح ، فلا معولَ على شيء مَنْسِيّ ، ولا يصح الاحتجاج به ، وهذا

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧ .

(٢) انفرد الإمام أحمد بهذا الحديث وأخرجه في مسنده (في مسند الأنصار) ، رقم الحديث (٢٠٢٨٣) .

لا يصحُّ ، لأن الإنسان كثيراً ما ينسى شيئاً ، ثم يؤمن به إذا أخبره به الثقات ، فكلنا ولد من بطن أمه ، ولكنه لا يذكر هذه الساعة ، ولا هذا الحادث ، فإنه كان لا يعي ذلك ولم يكن يعقل في ذلك الحين ، ولكن لما استفاضَ ذلك الخبر ، وتوارت به الأنباء ، وتناقلته الأَلْسِنُ ، آمن به ، ولم يشك في أمه أنها له أمٌّ ، وهو لها ابن ، لا يعدل عنها عدولًا ، ولا يبغي لها بديلاً ، فمن عقَّ أمه ، ولم يبرَّ بها ، واتخذ له أماً أخرى ، كثرت القالة فيه ، وأصبح شامة في الناس ، فإن تعلل بأنه لا يذكر هذا الحادث ، وأنه لا يعتمد على مجرد الإشاعة ، ضعف الناس عقله ، وسفهوا حلمه ، واعتبروه قليل الحياء ، قليل الأدب ، فإذا كان الناس يعتمدون على حديث العامة ، وآمنوا بسببه بحقائق ، كان الأنبياء أولى بهذه الثقة ، وأجدر بالاحتجاج .

وقد تبيَّن من هذا الحديث أنه قد سبق أمر الله بالتوحيد والنهي عن الشرك لكل نسمة في عالم الأرواح ، وما بُعثت الرسل ، ونزلت الصحف إلا لتبيِّن ذلك وتؤكِّده ، وقد تلخص كلام الأنبياء ، وهو الاعتصام بالتوحيد ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن الشرك ، واتخاذ غير الله حاكماً ، يتصرف في الكون ، واتخاذه رباً يُطلب منه تحقيق مطالبه وإسعاف حاجته .

الضِّن بعقيدة التوحيد والاستقامة عليها عند الفتنة والبلاء :

وأخرج أحمد عن مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسولُ الله ﷺ : « **لَا تُشْرِكْ بِاللهِ شَيْئاً وإنْ قُتِلْتَ وحُرِّقْتَ** »[١] .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (في مسند الأنصار) رقم الحديث (٢١٠٦٠) .

فيجب على المسلم أن يصبر على ما يصيبه من الأذى ، من الجِن أو العفاريت ، كما يجب عليه أن يصبر على ما يصيبه من محنة أو مكروه من بشر في حياته ولا ينبغي أن تحمله هذه الفتنة على وهن في الدين ، أو فساد في العقيدة ، فيحبط بذلك عمله ، ويخسر بذلك دينه الذي هو ملاك أمره ، ورأس ماله ، فيجب عليه أن يعتقد أن الأمر كلَّه بيد الله ، ولكنه قد يمتحن عباده ، وينال الأخيار أذى من الأشرار ليميِّز الله الخبيث من الطيب ، ويميز بين المؤمن والمنافق ، وكما أن المسلمين يكونون عرضة لأذى الكفار والفساق ، فلا يسعهم على ذلك إلا الصبر ، ولا يرضون أن يتطرق إلى دينهم وهنٌ ، أو يتسرب إلى عقيدتهم فساد ، كذلك قد يُصيب بعض الصالحين مسٌّ من الجن ، أو خَبْل[1] من الشياطين ، فلا يكون ذلك إلا بإذن الله وعلمه فينبغي لهم أن يصبروا على ذلك الأذى ، ولا يخضعوا لهذه القوى بالاستسلام أو التعظيم .

وقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ مَن مَقَتَ الشِّرْكَ ، ونبذ الآلهة ، وكره تقديم النذور والقرابين إليها ، وحارب العادات الجاهلية ، والتقاليد الباطلة ، فأصابته خسارة في المال ، أو رزيَّة في الأولاد ، أو آذاه الشيطانُ باسم شيخ أو شهيد ، يجب عليه أن يصبر على ذلك ، ويستقيم على دينه ، ويعتقد أن الله ممتحنه في دينه ، وكما أن الله قد يُمهل الظالمين ولا يهملهم ، ويخلص المظلومين منهم ، كذلك لا محالة هو معاقب للظلمة من الجن ، ومخلص للصالحين من أذاهم .

إقبالُ المملوك على غير مالكه ، وولي نعمه ، قلَّة غيرة وعدم وفاء :

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رجلٌ

---

(١) خَبْل : الفِتنةُ .

يا رسولَ الله أي الذنب أكبر عند الله ؟ قال : « **أنْ تَدْعُوَ لله نِدّاً**[1] **وَهُوَ خَلَقَكَ** »[2] .

وقد دلَّ هذا الحديث على أن إشراك العبد أحداً لله تعالى في علمه المحيط ، وقربه من كل أحد ، وقدرته على كل شيء ، فيستغيث به ويستصرخه أكبر الكبائر ، لأنه ليس في إمكان أحد أن يسعف بحاجته مثله ، وأن يكون في كل مكان لا يغيب عنه شيء .

ثم إنه إذا كان الواقع أن الله تعالى هو الذي خلقنا وهو ربُّنا ونحن نُقِرُّ بذلك وجب علينا أن لا نُنادي إلا إيَّاه ، ولا نستعين إلا به ، وما لنا ولغيره[3] ؟ فمن كان من جملة عبيد ملك وصنائعه ، انقطع إليه كلياً ، وأطبق عينه عن كل ملك ورئيس ، فضلاً عن وضيع أو خسِيس ، أيجمل بنا أن نكون أقل غيرة ، وأضعف وفاءً من المملوك لمولاه المجازي ؟ .

---

(١) نِدّاً : يُقالُ « نَدِيْدُ » أيضاً : وهو نظير الشيء الذي يعارضه في أموره .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، رقم الحديث (١٢٥) ، والحديث بكامله كما رواه عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه : قال رجلُ يا رسول الله ! أيُّ الذَّنب أكبر عند الله ؟ قال : « أن تدْعُوَ لله نِداً وهو خَلَقَك » ، قال ثم أيُّ ، قال : « أن تقتل ولدك مخافةَ أن يطْعَمَ مَعَكَ » ، قال ثمَّ أي ، قال : « أن تُزاني حليلةَ جارك » فأنزل الله عزّ وجلّ تصديقهما : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [سورة الفرقان ، الآية : ٦٨] .

(٣) وقد شنع الإمام عبد القادر الجيلاني على من يشرك بالله غيره ، ويعتقد فيه النفع والضرر ، والعطاء والمنع ، في بلاغة وقوة ، فقال : « يا معرضاً عن الحق عز وجل ، مقبلاً على الخلق مشركاً بهم ، إلى متى إقبالك عليهم ؟ إيش ينفعونك ؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع ، ولا عطاء ولا منع ، لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضر والنفع ، الملك واحد ، الضار واحد ، النافع واحد ، المحرك والمسكن واحد ، المسلط واحد ، المسخر واحد ، المعطي والمانع واحد ، الخالق والرازق والله عز وجل » . (**الفتح الرباني** ، المجلد الثالث عشر) [م] .

الموحِّد المذنب حريٌ بأن يتوب ، وتُدركه رحمة الله ولطفه بخلاف المشركِ العابِد :

وأخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **قالَ اللهُ تعالى : يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ لَوْ لَقِيْتَنِي بِقُرَابِ الأرْض خَطَايا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشرِكُ بِيْ شَيْئاً لأتَيْتُكَ بَقرَابِها مَغْفِرَةً** »[(١)] .

وقد دلَّ هذا الحديث على أن الإنسان مهما أتى به مِن ذنوب ، واقترف من آثام ، وإن كانت تعدل ذنوب أكبر العصاة والمجرمين كفِرعون وهامان ، ولكنه سلم عن الإشراك بدَّل الله سيئاته حسنات ، وآتاه قراب هذه الذنوب مغفرة ، فظهر أن الذنوب تتضاءل أمام عقيدة التوحيد ، وأن بركتها تغشى المذنب فتمحو خطاياه ، كما أن للشرك شُؤماً وظلمة تطغى على جميع الحسنات ، وتحبط جميع العبادات ، فإنه إذا وقر في قلب المؤمن ، واستقرَّ أنه لا إله إلا هو ، لا ربَّ سواه ، ولا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه ، وأنه لا معقب لأمره ، ولا رادّ لقضائه ، وليس له وكيل ولا شفيع إلا بإذنه ، فقد تطهَّر من أوضاع الشرك ، فما صدرَ عنه من ذنب ، فهو من مقتضى البشرية ، ونتيجة النسيان ، والسهو ، ويستولي على قلبه الخوف من هذه الذنوب ، وينال منه كل منال ، ومن الطبيعي أن يَعاف هذه الذنوب ويستوحش منها ، حتى تضيق

---

(١) انفرد به الترمذي ، وأخرجه في كتاب الدعوات ، رقم الحديث : (٣٤٦٣) والحديث بكامله : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول اللهِ ﷺ يقولُ : « **قالَ اللهُ تبارك وتعالى : يا ابن آدم ! إنَّك ما دعوتَني ورَجوتَني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم ! لو بلغتْ ذنوبُك عنان السّماء ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي ، يا ابن آدم : إنَّكَ لو أتيْتَني بقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتَني لا تشرك بي شيئاً لأتيتُك بقُرابِها مغفرةً** » قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

عليه الأرضُ بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، فلا تصفو له الحياة ، ولا يطيب له طعام ولا شراب ، وكل من كان هذا شأنه أظلَّته رحمة الله ولطفه ، وكلما أكثر من الذنوب اشتدَّت به الكآبة وأحاطت به الوحشة ، فمن رسخت قدمه في التوحيد عملت ذنوبه ما لا تعمل عبادة غيره ، فكان الفاسق الموحِّد خيراً من المتقي المشرك ألف مرة ، كما أن الوفي المقصِّر من الرعية كان خيراً من الثائر المتملق ، لأن الأوَّل نادِم على تقصيره ، والثاني معجب بخديعته ونفاقه ، مدل بنفسه ، يحسب أنه يُحسن صُنعاً .

الفصل الرابع

في
ردِّ الإِشراك في العِلْمِ

رَدُّ الإشراك في العلم

الحواس الخمس الظاهرة ، والعقل ، مِنحة إلاهِيَّة عامة للبشر :

قال الله تعالى : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾[١] ، اعْلَم أن الله تعالى قد وهب عباده قوى ووسائل للاطلاع على أمور ظاهرة ، فرزقهم العينَ ليبصروا ، والأذن ليسمعوا ، والأنف ليشمُّوا ، واللسان ليذوقوا ، واليد ليجسُّوا ، والعقل ليفهموا ويتبصروا ، وقد مكَّنهم من هذه الطرق والوسائل ، وملَّكهم إيَّاها ليستخدموها في مآربهم وحاجاتهم ، فكلَّما أَراد الإنسان أن يبصر فتح عينَه وإلا أَطبقها ، وإذا أَراد أن يتذوق شيئاً وضعه في فمه ، إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، فكأنما أعطاهم مفاتيح لاكتشاف هذه الأشياء والاطلاع عليها ، ومن كان عنده مفتاح كان القُفل خاضعاً له ، تابعاً لإرادته ، إن شاء فتح ، وإن لم يشأ لم يفتح ، فكان لاطلاع على الأمور الظاهرة في تصرف الناس ، وكانوا أحراراً فيه ، يتصرفون فيه كما يشاؤون .

عِلم الغيب خاصٌّ بالله تعالى ، و وراء طَوْر البشر :

وهذا شأن الاطلاع على الغيب فيما يختص بالله تعالى ، فهو يملكه ويتصرف فيه كما يشاء ، وهي صفته الدائمة ، ولم يجعل لوليٍّ أو نبيٍّ ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .

أو جنيٍّ أو ملك ، أو شيخ أو شهيد ، أو إمام ، أو سَلِيل إمام ، ولا لعفريت ولا لجنية أن يطلعوا على الغيب متى شاؤوا ، إنَّ الله قد يُطْلِعُ من يشاء على ما يشاء متى يشاء ، لا يجاوز علمه ما أراد الله إطلاعه عليه مثقال ذرة ، وكان ذلك خاضعاً لإرادة الله تعالى ، لا لهَوَاهم .

وقد وقع النبيُّ ﷺ مراراً أنه رغب في الاطلاع على شيء فلم يتيسَّر له ذلك، فلما أراد الله ذلك أطلعه عليه في طرفة عين . وقصة الإِفْك مشهورة معلومة للجميع، وقد أشاع المنافقون عن سيِّدتنا عائشة [رضي الله عنها] ما هي منه بريئة، وقد كبر ذلك على النبي ﷺ، وبلغ منه كلَّ مبلغ، وقضى أياماً يفحص فيها الأمر فلم تنكشف له الحقيقة، وبقي أياماً مشغول الخاطر، فلما أراد الله أن تنجلي عنه هذه الغمَّة ، وتنكشف له الحقيقة أخبره بأن المنافقين هم الكاذبون، وأن عائشة رضي الله عنها بريئة من هذه التهمة ، فعلم من ذلك يقيناً أن مفتاح الغيب بيد الله تعالى لم يمكّن منه أحداً، ولم يملّكه إياه، وليس له خازن بل هو الذي يفتح هذا القفل بيده ، فيهب من يشاء ما يشاء ، لا يمسك يده أحد ، ولا يمنعه عن ذلك أحد .

من ادَّعى لنفسه ، أو اعتقد في أحد عِلمَ الغيب بالاستقلال والدَّوام كان كاذباً آثماً :

وقد تبين من هذه الآية أن من ادَّعى علماً يعرف به الغيب متى شاء وأن الاطلاع على الأمور المستقبلة ميسور له ، وتحت تصرفه ، كان كذّاباً ، مدَّعياً للأُلوهية ، ومن اعتقد ذلك في نبي أو ولي ، أو جني أو ملَك ، أو إمام أو ابن إمام ، أو شيخ أو شهيد ، ، أو مُنجم أو رمَّال ، أو جَفَّار[1] ، أو من يبحث عن الفال في

(١) الجفَّار : الذي يبحث عن الحروف من حيث دلالتُها على أحداث العالم .

كتاب[1] ، وغير ذلك ، أو كاهن أو سادن ، أو عفريت أو جنية كان مشركاً ، منكراً لهذه الآية .

ومن وَسْوَسَتْ له نفسُه ، وسوّل له الشيطان أنه قد يتحقق ما يخبر به منجم ، أو رمّال ، أو كاهن ، أو محترف بالإخبار بالسعد والنحس ، فيدل ذلك على علمه للغيب ، فكل ذلك باطل ، فإن كثيراً ما تخطىء أخبارهم ويقع عكسها ، فثبت من ذلك أنه لا صِلة له بعلم الغيب ، وأنه ليس في تصرفهم ، وإنما يتكلّمون رجماً بالغيب ، وقد يُصيبون ، وقد يخطئون ، وهذا هو الشأن في الاستخارة والكشف ، ومن يبحث عن الفال في المصحف .

وبالعكس من ذلك فإنه لا خطأ في الوحي ، والوحي لا يملكون من أمره شيئاً ، وإنما ذلك إلى الله ، إذا شاء أَوحى إليهم بما شاء ، وإذا لم يشأ لم يُوْحَ إليهم ، لا أثر لرغبتهم في ذلك ، يقول الله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[2] ، فعلم أنه لا سلطان لأحد على الغيب ، ودليله أن جميع المؤمنين يؤمنون بأن الساعة آية لا ريب فيها ، ولكنهم لا يعلمون موعدَها بالتحديد ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا

---

(١) اعتاد الناس في الهند وغيرها أنهم إذا غمَّ عليهم أمر ، وكانوا في حيرة وتردد ، يقدمون رجلاً ويؤخِّرون أخرى ، فتحوا كتاباً يعتقدون في مؤلفه الخير ، وشفوف الروح ، فيفتحونه من غير تخير ، فما واجههم في الصفحة التي فتحوا تفاءلوا به ، وبتوا الأمر ، وقد كثر الاعتماد على ذلك في إيران ، وشبه القارة الهندية ، على « **ديوان حافظ [السعدي الشّيرازي]** » الشاعر الغزلي الصوفي ، المتوفى سنة ٦٩١هـ ، ويسمون هذا الاستفتاء « برؤية الفال » [م] .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٦٥ .

تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) .

الأُمور المستقبلة التي لا تعلم بالقطع :

فإذا كان هذا شأن الساعة التي هي من الأمور القطعية ، ومن ضروريّات الدين ، لا يعلمها أحد ، فما ظنُّك بغيرها من الأخبار والحوادث كالفتح والهزيمة ، والمرض والصحة !، فإنها لم تشتهر اشتهار القيامة ، ولم تكن منزلتها من القطع واليقين كمنزلة القيامة ، كذلك لا يعرف أحد متى ينزل المطر ، من أن الفصول معيَّنة ، وللأمطار فصل وإبَّان ، تجيء فيه الأمطار في غالب الأحيان ، أما الأشياء التي ليس لها فصل معيَّن ، ولا يتفق الناس على الحاجة إليه ، أو الرغبة فيه ، كأن يموت رجل أو يعيش ، أو أن يُرزق ولداً ، أو يُغنى الإنسان أو يفتقر ، أو أن ينتصر أحد في الحرب أو ينهزم أحد ، فلا سبيل إلى علمها لأحد ، وكذلك ما كان في الأرحام من نُطفة فلا يعلم .

العلم بمكنونات الضَّمائر وهَواجِس الخواطر ، ليس بميسور دائماً :

وإذا كان هذا شأن أمور تظهر أماراتها ، وتعرف مقدماتها ، فكيف بما يضمره الإنسان من أفكار وخواطر ، وإرادات ونيَّات ، وإيمان ونفاق وهي في بطون الضمائر ، وطَيَّات الصدور ، وإذا لم يعلم أحد ما مصيره غداً ، وما هو فاعله ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾(٢) فكيف يعلم

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

حال غيره ؟ وإذا لم يعلم مكان موته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾[1] فكيف يعلم أين يموت فلان ومتى يموت ؟

المُدَّعون المحترفون بالإخبار عن الأمور الغيبية :

وجملة القول : أن الذين يدَّعون الغيب ، أو يدَّعون الكشف منهم من يستخرج الأخبار من تقويم النجوم ، أو الرَّمل ، ومنهم من يطوف في الناس ، فإنهم كلُّهم كاذبون مزوِّرون ، ويجب على المسلم الصادق أن يبتعد عنهم ، ولا يقع في شباكهم .

نداء الأموات من بعيد أو قريب للدُّعاء إشراك في العلم :

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾[2] .

وقد دلَّت هذه الآية على أن المشركين أَمعنوا في السفاهة ، فقد عدلوا عن الله القادر العليم ، إلى أُناس لا يسمعون دعاءهم ، وإن سمعوا ما استجابوا [لهم] ، وهم لا يقدِرون على شيء ، فظهر من ذلك أن الذين يستغيثون ويظنُّون أنهم ما أشركوا ، فإنهم ما طلبوا منهم قضاء الحاجة ، وإنما طلبوا منهم الدعاء ، وإن لم يشركوا عن طريق طلب قضاء الحاجة ، فإنهم أشركوا عن طريق النِّداء ، فقد ظنُّوا أنهم يسمعون نداءهم عن بعد ، كما يسمعون نداءهم عن قرب .

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .
(٢) سورة الأحقاف ، الآية : ٥ .

نفي القدرة المطلقة والاستقلال بعلم الغيب عن النبي ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾(١) .

وقد خاطب الله في هذه الآية سيدَ الأنبياء ، ومنه تعلَّم الناس الدين ، وباتباعه واقتفاء آثاره نال من نال الشرف عند الناس ، والمنزلة عند الله ، فأمره بأن يخبر الناس ، بخبره ، حتى يقيس به الناس غيره ، فإذا كان هو لا يقدر على شيء ولا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولو كان يعلم الغيب لعرف عواقب الأمور ، فإذا عرف عن أمر أنه يؤوِّل إلى نجاح أقدم عليه ، وإذا عرف أنه لا خير فيه ، أمسك عنه ، وزهد فيه(٢) .

وقد نفى النبيُّ ﷺ عن نفسه الشريفة القدرة المطلقة ، والعلم بالغيب ، إنما أكرمه الله بالرسالة ، وشرفه بالنبوة ، والنبي مكلف بالإنذار والتبشير لا غير ، ينذر السيئات بسخط الله وعذابه ، ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴾(٣) ، ولا ينفع الإنذار والتبشير إلا لأهل الإيمان(٤) ، وليس من شأن النبي ﷺ أن يخلق الإيمان في قلوب الناس ، إنما هو خلق الله .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٨ .

(٢) صح من قوله ﷺ : « ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ، ولحللت مع الناسِ حيث حلّوا » (رواه البخاري في كتاب التمني ، رقم الحديث : ٧٢٢٩) .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ٢ .

(٤) يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [سورة يس ، الآية : ١١] .

سِرُّ شرف الأنبياء ، وكرامة الأولياء في التصرف المطلق ، والعلم المستقل بالغيب :

وقد دلَّت هذه الآية على أن الأنبياء والأولياء ، إنما شرفهم الله على الخلق ، وعَلَتْ منزلتهم عند الله ، لأنهم يدعون الناس إلى الله ، ويرشدون إلى طرائق الحق ، ولأنهم يعرفون ما هو صالح الأعمال ، وما هو فاسِدها ، فيعلِّمون الناس ذلك وينفع الله بكلامهم ، فينفذ في القلب ، ويهتدي الناس إلى الصراط المستقيم ، وليس شرفهم ، لأن الله سبحانه وتعالى مَنحهم قدرة التصرف في العالم ، فيُميتون من يشاؤون ، أو يَرزقون من يشاؤون الأولاد ، أو يفرِّجون الكرب ، ويكشفون الغم ويحقِّقون أماني الناس ، ويقضون حاجاتهم ، ويجعلون من يشاؤون منتصراً أو منهزماً ، أو غنياً أو فقيراً ، أو ملكاً أو أميراً ، أو وزيراً ، وينتزعون ممن يشاؤون ملكاً أو إمارة ، أو يخلقون في قلب من يشاؤون الإيمان ، أو ينتزعونه منه ، أو يَشفون المريض ، أو يَسلبون منه الصحة ، قد تساوى في ذلك جميع العباد ، فكلُّهم عاجزون ضعفاء لا يقدرون على شيء .

وكذلك لا يمتازون عن الناس بأن الله سبحانه وتعالى مكَّنهم من علم الغيب ، وبسط لهم فيه ، فيطلعون على خواطر النفوس متى شاؤوا ، ويطلعون على شؤون من غاب إذا شاؤوا ، فيعرفون هل هو حيٌّ أم مات ، وفي أي مدينة هو ، وما تكتنفه من أحوال ، وما يتقلب فيه من نعيم أو بؤس ، ويعرفون ما هو كائن غداً ، فيعرفون أن فلانا سيُرزق ولداً ، وفلاناً لا يُولد له ، وفلاناً يربح في التجارة أو يخسر ، وهل يقدر لفلان الانتصار في الحرب ، أو سيلقى الهزيمة ، فقد تساوى في ذلك جميع العباد كِبارهم وصِغارهم ، هم عن ذلك في عَمًى ، إلا ما ينقل عن بعض

العقلاء شيء من الحدس ، أو لتقدير مصدره القرائن أو العقل السليم ، فيتفق ذلك مع الواقع ، كذلك هؤلاء السادة والعظماء قد يحكمون على شيء بعقل أو قرينة ، فيتحقق في بعض الأحيان ، ويتخلف في بعض الأحيان ، أما ما كان عن طريق الوحي والإلهام ، فهو لا يقاس على ذلك ، ولا يتطرق إليه خطأ ، ولا ترتقي إليه شبهة .

استنكار النَّبي ﷺ لنسبة علم الغيب إليه :

أخرج البخاري عَن الرُّبَيِّع بِنْتَ مُعَوِّذَ بن عَفْرَاءِ ، قَالَت : جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَل حِينَ بُنِيَ عليَّ ، فَجَلَسَ عَلَى فِراشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي ، فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَّات لَنَا يَضْرِبْنَ بالدُّف ، وَيَنْدِبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدرٍ ، إذْ قَالَتْ إحْدَاهُنَّ : « وَفِيْنا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا في غَدٍ فَقَال : « **دَعِي هَذِهِ ، وَقُولِي بالَّذِي كُنْتِ تَقُوْلِيْنَ** »[1] .

وقد دلَّ هذا الحديث على أنه لا يصحُ أن يعتقد الإنسان في نبيٍّ أو وليٍّ ، وإمام أو شهيد ، أنه يعلم الغيب ، حتى لا يصح هذا الاعتقاد في حضرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولا يصح أن يمدح بذلك في شعر أو كلام ، أو خطبة ، أمَّا ما اعتاد الشعراء من المبالغة والإسراف في مدح الرسول ﷺ ، أو غيره من الأنبياء والأولياء ، والصلحاء والمشايخ ، أو الأساتذة ، فتخطَّوا في ذلك حدودَ الشرع ، ونعتوهم في بعض الأحيان بما يليق بالله تعالى ، فإذا عُورِضوا قالوا : إن الشعر جماله المبالغة ، وكل شعر تجرَّد عن المبالغة فهو بالنثر أشبه منه بالشعر ، ولكن

---

(١) أخرجه **البخاري** في كتاب النكاح ، رقم الحديث (٤٧٥٠) ، **والترمذي في النكاح** (١٠١٠) ، **وأبي داوود في الأدب** (٤٢٧٦) ، **وابن ماجه في النكاح** (١٨٨٧) ، **أحمد في** مسنده (في باقي مسند الأنصار) (٢٥٧٧٩) و(٢٥٧٨٥) .

لا يصح هذا الاعتذار ، فإن النبي ﷺ نهى جواري الأنصار عن أن يُنشدن شعراً نُسب إليه في علم الغيب ، فما ظنُّك بعاقل يقول مثل هذا الشعر أو يستحسنه ؟ .

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : من أخبرك أن محمداً ﷺ يعلم الخمس التي قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[1] ، فقد أعظم الفرية .

وهذه الخمس هي التي ذكرها الله في آخر سورة لقمان ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[2][3] .

وأخرج البخاري عن أُمِّ العَلاء قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « وَاللهِ ما أدرِي وأنَا رَسُوْلُ اللهِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ »[4] .

* * *

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

(٢) سورة لقمان ، الآية : ٣٤ .

(٣) وذكر النبي ﷺ هذه الخمس كما جاء في الحديث الذي رواه ابن عُمرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسُولَ الله ﷺ قالَ : « مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ، لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ » (رواه البخاري في تفسير القرآن ، رقم الحديث : ٤٣٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز رقم الحديث (١١٦٦) ، وفي الشهادات (٢٤٩٠) ، وفي المناقب (٣٦٣٦) وفي التعبير (٦٤٨٧) و(٦٥٠٠) .

الفصل الخامس

في
رَدِّ الإشراك في التَّصَرُّف

رَدُّ الإشراك في التصرُّف

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[1] .

فإذا ثبت كما نطقت به الآيةُ ، أن العُقول السليمة والفِطَر المستقيمة قد أجمعت على إثبات القدرة المطلقة التي ليست فوقها قدرة ، والتصرف الحُر الذي لا يزاحمه تصرف ، والأمر القاهر الذي لا ينسخه أمر ، وليس له استئناف ، ولا تعديل ولا معارضة لله تعالى ، فمن وَالاه وتولَّاه ، فليس لأحد في الدنيا أن يضرَّه ، ومن عاداه وسخط عليه ، فليس لأحد في الدنيا أن يحميه أو يدافع عن ، وإذا سئل أشدُّ الناس إمعاناً في الجاهلية عن ذلك ، كان جوابه كما ذكره القرآن بالحرف الواحد ، ولم يسعه إلا أن يجيب بأن الله هو المتفرد بهذه القدرة المطلقة ، والتصرف المطلق والأمر القاهر الذي ليس فوقه أمر ، فإذا كان الأمر كذلك ، كان طلب قضاء الحاجات من غير الله ضرباً من الخيال ، وطلباً للمحال .

عقيدة أهل الجاهلية في الله وحقيقة شركهم :

وقد تحقَّق من هذه الآية الكريمة أن الكفار في عهد رسول الله ﷺ لم يكونوا يرون لله عديلاً يُساويه في الألوهية والقدرة ، وفي الخلق ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٨٨ ـ ٨٩ .

ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم والأصنام التي كانوا يعبدونها ، هم وكلاؤهم عند الله ، وبذلك كفروا ، فمن أثبت في عصرنا هذا لمخلوق التصرف في العالم ، واعتقد أنه وكيله عند الله ، ثبت عليه الشرك ، ولو لم يعدله بالله ، ولم يثبت له قدرة تساوي قدرة الله .

التحذير للمسلمين من تقليد المشركين في نبيِّهم وأولياء أمَّتِه :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾[1] .

وقد حَذر اللهُ في هذه الآية المسلمين من أمة محمد ﷺ من أن تغرَّهم نفوسهم فيقولوا : « إن نبينا ﷺ له دالة عند الله ، يضر وينفع ، ويدفع ويمنع ، ويفعل ما يشاء ، ونحن في أمته ، فنحن نأوي إلي ركن شديد ، وحرز حريز ، فإن وكيلنا عند الله ، وشفيعنا إليه ، من الله بمكان ليس لأحد ، فلا خوف علينا ولا خطر ، وبذلك يسترسلون في الخيال ، ويتوسعون في الأماني ويستخِفُّون بالعمل ، ولذلك أمر الله نبيَّه بأن يخبر الناس أنه لا يملك لهم ضراً ولا رشداً ، وأنه وهو سيد الأنبياء لن يجيره من الله أحد ، فكيف يستطيع أن يجيرهم من الله ، ويمنعهم من عذاب الله وعقابه ؟ .

وبذلك ظهر ضلال أولئك العامة ، والغَوْغَاء من الناس الذين ينسون الله ، ويستخِفُّون بأحكامه ، معتمدين على نصرة المشايخ والشهداء ، فإذا كان نبي الله يخاف الله ، ولا يرى له ملجأ إلا رحمة الله ، فكيف بمن ودونه من أفراد أمته ، وأتباعه ؟ .

---

(١) سورة الجن ، الآية : ٢١ ـ ٢٢ .

عجز الأنبياء وخواص الأمة عن التصرف في العالم :

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[1] .

يقول بعض العامة : إن الأنبياء ، والأولياء ، والأئمة ، والشهداء يقدرون على التصرف في العالم ، ولكنهم راضُونَ بقضاء الله وقدره ، قد أَدَّبُوا نفوسهم وألجموها ، فتواضعوا لعظمة الله تعالى ، وإلا إذا شاؤوا قَلَّبُوا هذا العالمَ رأساً على عقب ، ولكنهم أَمسكوا عن ذلك تعظيماً للشرع ، وأدباً معه ، وقد نَفت هذه الآية هذا الزعم ، فبيَّنت عجزهم وضعفهم ، وأنهم لا يملكون للناس رزقاً من السماوات والأرض ، فليس لهم سلطان على الأمطار ، ولا على السحاب والريح وليس لهم سلطان على الأرض فتخرج زهرتها ، وتلفظ خزائنها ، وإن كلَّ ذلك في قدرة الله وقبضته . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2] .

ومن السفاهة والظلم أن يُعطى الإنسان العاجز الضعيف ما كان من حقِّ القادر القوي ، ويعاملهما معاملة سَواء .

عادات المُلوك والأمراء في قبول الشفاعة وأنواع الشفعاء ، وأهل الوَجاهة :

وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٣ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠٦ .

﴿ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[١] .

قد جَرَتِ العادةُ أن من يقضي حاجة من يستصرخه ، ويغيثه ، يكون إما صاحب الأمر ، وإما شريكاً له سلطان عليه ، أو دالة عنده ، فمُلوك الأرض ينزلون عند رغبة أُمرائهم ، ويحقِّقون طلبهم ، فإنهم أعوانهم ، ودعائم ملكهم ، فإذا سخطوا أو حقدوا عليهم تزلزل ملكهم ، واضطرب أمرهم ، وإما أن يشفع إلى الملك أحد المقرَّبين إليه ، والذين لهم حظوة عنده ، فيحقق رغبتهم طوعاً وكرهاً ، وقد يفعل ذلك من غير رضىً وطواعية نفس ، شأن بنت الملك المدللة ، أو إحدى زوجاته الحظيات ، فلا يستطيع الملك أن يرفض شفاعتها فيقبلها .

أما أولئك الذين يستغيث بهم هؤلاء الجهال ، ويطلبون منهم قضاء حاجاتهم ، فلا يملكون حبَّة من شعير ، ولا شيئاً من نَقِير[٢] أو قِطْمِيْر[٣] في السموات والأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وليسوا من دعائم ملك الله ، ولا عضده الأيمن ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، حتى يقبل شفاعتهم اضطراراً واستسلاماً ، إنهم لا يملون أن يشفعوا إلا بإذنه ، ولا يستطيعون أن يحققوا رغبات المستشفعين بقوة أو قهر ، بل بالعكس من ذلك فقد بلغ بهم العجز والفقر إلى أنه إذا توجه إليهم أمر من الله أخذتهم المهابةُ وفقدوا رشدهم ، ويمنعهم الأدب والفزع عن مراجعة الله ،

---

(١) سورة سبأ ، الآية : ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) النَّقِير : هو النقرة في ظهر النواة ، يُضرب به المثلُ في الشيءِ الضعيف ، ففي التنزيل : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

(٣) القِطْمِير : القِشرة الرقيقة على النواة كاللِّفافة لها ، يُضرب به المثل في الشيء الهيِّن الحقير .

واستيضاح ما خُوطبوا به وأُمروا ، بل أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الحقيقة ، فإذا تبين لهم الأمر ، ما زادوا على أن يقولوا : آمنَّا وصدّقنا ، فضلاً عن معارضة الملك القاهر ، وعن الدفاع عن أحد ، أو الإدلاء بدليل أو برهان .

أنواع الشفاعة التي لا مجال لها عند الله :

وهنا يحسن التفطُّن لملاحظة دقيقة ، والتأمل فيها ، وهي أن كثيراً من الناس قد اعتمدوا على شفاعة الأنبياء ، والأولياء اعتماداً زائداً ، وقد أساؤوا فهم معنى الشفاعة ، فأدَّى ذلك إلى تناسي الله عزَّ وجلَّ ، والتشاغل عنه بخلقه ، فلتعرف حقيقة الشفاعة في ضوء نصوص الكتاب والسنة ، وما أثبتته الشريعة الإسلامية .

لقد تعوَّد الملوك ، والأمراء ، ورجال الدنيا أنواعاً من الشفاعة ، يلجؤون إليها ، عند الضرورة ، لمصالحهم الشخصية ، أو مصلحة من مصالح البلاد والرعية ، نذكرها أولاً ، حتى يعرف القارىءُ الفَطِنُ الفرقَ بين هذه الأنواع من الشفاعة ، وبين الشفاعة التي أثبتها القرآن ، وبضدِّها تتبين الأشياء .

[النوع الأوَّل : الشفاعة الوَجاهة] :

منها : أن رجلاً تحققت عليه السرقةُ ، فشفع له أمير ، أو وزير إلى الملك ، فأطلقه الملك وصفح عنه ، ولذلك أسباب :

منها : أن الملك يريد أن يعاقب السارق ، والقانون يأمر بذلك ، وهو يستحق العقوبة ، ولكن الملك عَدَلَ عن رغبته ، وصفح عن جريمة هذا المجرم ، لأن هذا الأمر هو دعامة قوية من دعائم ملكه ، فيعرف

الملك أن الأفضل في هذا المقام أن يملك نفسه ويقهر غضبه ، ويصفح عن فرد ارتكب جريمة السرقة ، فإنه إذا أسخط هذا الأمير ورفض طلبه ، اختلت الأمور ، واسْتَشْرَى[1] الفسادُ في مملكته ، وفقدت الشيء الكثير من بهائها ومهابتها ، وهذا النوع من الشفاعة يُسمى شفاعة الوَجاهة ، ومعلوم أنه لا مساغ لهذا النوع من الشفاعة عند الله ، ولا مجال له ، فمن رَجا من نبيٍّ أو وليٍّ ، أو إمام أو شهيد ، أو ملك أو شيخ مثل هذه الشفاعة ، ونظر إليه كشفيع تقبل شفاعته لا محالة لعظم جاهه ، وعُلو منزلته ، فقد أُوغل في الشرك والجهالة ، فإنه لم يقدر الله حق قدره ، وما شمَّ رائحة العلم والمعرفة ، فإن الله هو ربُّ الأرباب ، وملك الملوك ، قد وسع كُرسِيُّه السماوات والأرض ، وإنه يقدر أن يخلق بمجرد الأمر بكلمة « كُنْ » آلافاً مؤلفةً من الأنبياء والأولياء ، والجن والملائكة ، كأوَّل ملك ، وأول نبي ، فلا أفضل في الملائكة من جبريل ، ولا أفضل في الأنبياء من محمَّد ﷺ ، وإذا شاءَ قَلَّبَ هذا العالم رأساً على عَقِبٍ ، من الثُّرَيَّا[2] إلى الثَّرَى[3] ، وأنشأ عالماً جديداً مكان هذا العالم ، لأن كل شيء يظهر إلى الوجود بمجرد أمره ، لا يحتاج في إيجاد شيء ، أو تحقيق أمر إلى الأسباب والوسائل ، أو المواد الأولية ، وإذا كان جميع الخلق أوَّلهم وآخرهم ، وإِنسهم وجِنُّهم على قلب أفضل ملك ، أو أفضل نبي ، ما زاد ذلك في ملكه ، وإذا كانوا كلهم على هيئة شيطان ، أو دجَّال لم ينقص ذلك من بهاء ملكه ، فهو في كل حال أعظم من كل عظيم . وقاهر الملوك

---

(١) اسْتَشْرَى : تعاظَمَ أو تفاقَمَ .
(٢) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم في صورة الثور .
(٣) الثَّرَى : الأرض .

والسلاطين ، لا يصيبه أحد بنفع ولا ضرر أو زيادة ونقص[1] .

[النوع الثاني : الشفاعة المحبَّة] :

أن يقوم أحد من أبناء الملك ، أو زوجاتِه ، أو من أُولِع بحبه ، بشفاعة لهذا السارق ، فيضطر الملك إلى العفو عنه بدافع من حب هذا الشافع وغرامه ، وهذا يُسمى شفاعة المحبة ، فإن هذا الملك رأى أن كظم الغيظ في هذا المحل والعفو عن مجرم واحد خير مما يصيبه من الكمد ، والكآبة التي تحيط به ، وتكدر صفو حياته ، إذا سخط عليه هذا المحبوب ، أو الحظي ، وعاتبه ، وأعرض عنه .

ومن المعلوم أنه لا مجال لهذا النوع كذلك في حق الله ، ومن ظن بأحد أنه شفيع عند الله من هذا النوع ، فقد أشبه الأول في الشرك والجهالة ، فإن الله سبحانه وتعالى مهما خصَّ عبداً من عباده بنِعَمه وحُبه ، ووصف بعض الملائكة بأنه « رسول كريم »[2] ، و« مكين »[1]

---

(١) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي ، إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » وهذا بعض من الحديث الطويل ، الذي أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، رقم الحديث (٤٦٧٤) ، وأحمد في مسنده (في مسند الأنصار) ، (٢٠٤٥١) .

(٢) قال الله تعالى في سورة التكوير ، الآية : ٢٠ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وقد ذهب المفسرون إلى أن المراد به جبريل عليه السلام ، وقال في=

و« روح القدس »[1] ، و« الروح الأمين »[1] ، ولكن السيِّد هو السيِّد ، والعبد هو العبد ، ولا يستطيع عبد أن يتخطى العبودية ، ويتعالى على ما قدر له ، ووُسم به من ذُلِّ الرِّق ، وسيَّما العبودية ، فكما أنه يخضع لسيده طائعاً مسروراً ، وهو يعطف عليه ، ويغمره برحمته ، كذلك ينخلع قلبه ، وتنفطر مرارة كبده من هيبته وجلاله .

[النوع الثالث : الشفاعة بالإذن] وهي الشفاعة الثابتة في الإسلام :

أن السارق تحققت عليه الجريمةُ ، ولكنه لم يتخذ السرقةَ ديدناً وحرفة ، ولكنه ارتكب هذه الجريمة بنَزْوةٍ من نزوات النفس ، فهو نادم على فعلته ، وهو رجل خجل يُجل قانون ملكه ، ويعتبر نفسه مخطئاً يستحق العقوبة ، إنه لا يلوذ بكنف أمير أو وزير هرباً من الملك ، ولا يدلُّ بنصرة أحد ، ولا يعتمد عليها ، إن عينه شاخصة إلى الملك ، وإن آماله مَنُوْطَة به ، لا غير ، يتطلع إلى ما يصدر من الملك في أمره ، وإلى ما يأمر به ، فلما رآه الملك بهذه الحال من القلق وانقطاع الآمال ، والتقلُّب بين الخوف والرجاء رقَّ له قلبه ، ورثى لحاله ، ولكنه يعرف أنه إذا صفح عن جريمته من غير سبب ، تطرق الوهن إلى قانونه ، ونظام مملكته ، واستخف الناس بهذا القانون ، وزالت عنهم مهابته ، فأوعزَ إلى أمير أو وزير فقام بشفاعته عنده ، وأبدى الملك أنه يريد أن يكرم هذا الأمير بقبول شفاعته ، فعفا عن السارق بشفاعة الأمير ، والظاهر أن هذا الأمير لم يشفع لهذا السارق ، لأنه يتصل له بنسب أو صداقة ، أو أنه

= سورة الشعراء ، الآية : ١٩٣ : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ ، وقال في سورة البقرة ، الآية : ٨٧ : ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ، وقال في سورة المائدة ، الآية : ١١٠ : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ والمراد بكل ذلك جبريل .

تكفل بنصرته ، ولكنه شفع له لأنه اطلع على رغبة الملك وهذا النوع من الشفاعة يُسمَّى « الشفاعة بالإذن » .

فليعلم أنها هي الشفاعة المأذونة الممكنة ، وكل شفاعة يتحدث عنها القرآن والحديث ، فهي الشفاعة المأذون لها ، فيجب على الإنسان أن يظلَّ داعياً لله تعالى ، مشفقاً منه ، مستغيثاً به ، مُقِرّاً بذنوبه ، بين يديه ، مؤمناً بأنه ربَّه وناصره ، لا يعرف له إذا سرح طرفه ، وأرسل خياله ملجأ ولا ملاذاً إلا الله ، فلا يعتمد على نصرة سواه ، فإنه غفور رحيم ، سيفرِّج الكرب ، ويكشف الغمَّ بفضله ، ويغفر الذنوب جميعاً برحمته ، ويأمر من يشاء بشفاعته ، فكما أنه يجب أن يكل إليه جميع حاجاته ومآربه ، يتحتم عليه أن يَكِلَ إليه أمر نصرته وشفاعته ، يختار لها من يشاء ، ويأمر بها من يشاء ، عوضاً عن أن يبحث له عن شفيع ومدافع ، فيعتمد عليه اعتماداً ينسيه الاعتماد على الله ، ويشغله عنه ، ويستهين بأحكام الشريعة ، ويتخذ ما يدعو إليه هذا الشفيع أو الوكيل من طريق ، وما يسلكه من سبيل ، شرعة ومنهاجاً ، ويفضلها على دين الله ، وشريعة رسوله ، وسنة نبيِّه ، فإنها سُبَّةٌ ، تبرأ منها جميع الأنبياء والأولياء ، ومَقَتُوْهَا ، وهم لا يشفعون لمن تلبس بها ، بل يسخطون عليه ويعاندونه ، لأن سِرَّ كرامتهم ، ومناط شرفهم ، أنهم كانوا يؤثرون مرضاة الله على مرضاة أزواجهم ، وأولادهم ، وتلاميذهم ، وأتباعهم من عَبيد وخدم ، وأحِبة وأصحاب ، فإذا عارضَ منهم أحد أمراً من أَوامر الله تعالى ، أو حارب الله ورسوله ، عادوه وحاربوه ، وما ظنُّك بهؤلاء العامة الذين لا يتصلون بنسب أو صداقة ، أو حُب ، حتى يقوم هؤلاء بنصرتهم ، ويحاجوا الله فيهم ، ويكونوا للخائنين خصيماً ، بل الأمر بالضِّد ، فالحب لله والبغض لله ، قد أصبح شعاراً ودثاراً ، فإذا قضى الله

بإدخال هؤلاء المجرمين في النار أطاعوا الله في أمره ، وسعوا في سرعة وصولهم إلى قعر جهنم ، ونافسوا في الإعانة على ذلك .

لا داعِيَ إلى الاعتصام بغير الله :

أخرج الترمذي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه ، قال : كنتُ خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : « **يا غُلام ! [إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ] احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احفَظ اللهَ تجِدْهُ تُجاهَك ، إذا سَألْتَ فَاسْألِ اللهَ ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَو اجْتَمَعَوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** »[1] .

ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى مَلِكُ المُلوك ، ليس شأنه شأن الملوك ، الذين يأخذهم السفه ، ويميل بهم التيه ، فلا يرقون لمملوك ، ولا يعطفون عليه ، وإن بالغ في التضرع والاستغاثة ، لذلك لجأ كثيرٌ من رَعِيَّة الملوك وأهل مَمْلكتهم إلى الأمراء ، فتوسلوا بهم عند هؤلاء الملوك ، وتمسكوا بأهدابهم ، ولاذُوا بحماهم ليميلوا إليهم ، ويشملوهم بعطفهم ، ويعفوا عن خطاياهم ، تحقيقاً لرغبة هؤلاء الشفعاء ، أو وَجاهة أولئك الأمراء والعظماء ، بل هو في منتهى الكرم والرحمة ، لا ينسى أحداً ، ولا يغفل عن أحد ، شفع شفيع ، أو لم

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، رقم الحديث (٢٤٤٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأحمد في مسنده (في مسند بني هاشم) (٢٥٣٧) و(٢٦٢٧) و(٢٦٦٦) ، وابن الجعد في مسنده : (٣٥٧٠) ، وأبو يعلى في مسنده : (٢٥٥٦) .

يشفع ، وليس له مجلس كمجالس الملوك ، والسلاطين .

بل إن الله أقرب إلى عبده من حبل الوَرِيد[١] ، فمن أقبل عليه بقلبه أقبل عليه بعطفه ، ووجده تُجَاه نفسه ، ليس بينه وبين ربه حجاب ، إلا الغفلة والجهالة ، فمن بعد عنه بعد بغفلته ، ومن حرم رحمته حرم بجهالته ومعصيته ، وهو أقرب من كل قريب ، ألا يعرف من دعا شيخاً ، أو نبياً ، وناداهُمَا لنصرته ، ليقرِّباه إلى الله زُلْفَى ، أن الشَّيخ والنَّبي بعيدان عنه ، والله قريب منه ، ومثله مثل رجل جالس وحده عند الملك وقد أَقبل عليه الملك يسمع طلبه ، وما يُبديه من حاجة أو رغبة ، فانصرف هذا الرجل الجاهل عن الملك ، وبدأ ينادي أميراً أو وزيراً ، وهما بعيدان ، وسألهما أن يبلغا حاجته إلى هذا الملك العظيم ، وهو لا يخلو عن حالين : إما أنه أعمى ، وإما أنه مجنون .

وقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بأن العبد إذا سَنحت له حاجة اضطرَّته إلى السؤال فليسأل الله ، وأنه إذا كان في حاجة إلى إعانة ، أو إغاثة فليستعن بالله ، وأنه قد رُفِعَتِ الأقلام ، وجفَّت الصحف ، فلا ماحي لما أثبته الله ، ولا مُثبت لما محاه الله ، وأن القضاء واقع ، والأمر محتوم ، وإن اجتمع الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم على أن ينفعوا أحداً ، أو يضرُّوه ، لم يجاوز ذلك قدر الله .

الصالحون من عباد الله لا يملكون إلا الدُّعاء والسُّؤال من الله :

وقد ثبت من هذا الحديث أن ما يعتقده كثير من الجهلة والغوغاء ،

---

(١) الوَرِيد : عرق تزعم العربُ أنه من الوتين ، وفي التنزيل ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [سورة ق ، الآية : ١٦] .

أن الله سبحانه وتعالى قد أذن للأولياء أن يغيِّروا قضاء الله وقدره ، فرُبَّ رجل لم يرزقه الله ولداً ، يرزقه هؤلاء الأولياء أولاداً ، ورُبَّ رجل انتهى أجله ، وحضرته الوفاة ، زادوا في عمره ؟ وهذا كله باطل ، إن الحقيقة أن الله قد يقبل دعاء عبده ، وقد لا يقبل ، ويمتاز الأنبياء والأولياء عن عامة الناس بأن أكثر دعواتهم مقبولة ، وهم مستجابو الدعاء ، ولكن التوفيق بيد الله فيُلهمهم الدعاء ويتقبل منهم ، والدعاء والاستجابة كلاهما مقدران ، قد جرى بهما قلم القضاء ، ولا يقع في العالم شيء إلا ومضى به علم الله ، وجرى به القلم ، فلا يخرج شيء من دائرة القضاء والقدر ، ولا يقدر أحد على عمل إلا ما قدر في علم الله ، ولا يملك نبيٌّ أو وليٌّ ، إلا أن يسأل الله ويدعوه ، لا حيلة له ولا سبيل إلا هذا السؤال والدعاء ، وإذا شاء أجاب سؤاله ، وقضى حاجته ، وإذا شاء منعه لحكمة يعلمها .

المُؤمن الموحِّد رابط الجأْشِ[1] ناعِم البال ، وضعيف العقيدة ، مشتَّت الفكر ، موزَّع النفس :

من المشاهد أن الإنسان إذا تعلق قلبه بشيء واستحوذ عليه ، أو أَلَمَّتْ به مُلِمَّةٌ فلم تنفرج ، تشتت فكره ، وذهب في طلب الغوث كل مذهب ، وهامَ في كلِّ واد ، وقد تسول له نفسه أن يستصرخ النبي الفلاني ، وقد تزين له أن ينادي فلانا من الأئمة ، وقد يجول بخاطره أن ينذر لفلان من المشايخ ، وكذا من الشهداء ، أو يخضع قلبه لجِنِيَّة فلانية ، أو يرجع إلى المنجم الفلاني ، أو الرَّمَّال الفلاني ، وقد تحدثه نفسه بأن يراجع سادناً ، أو إماماً من أئمة المساجد الذين اتخذوا هذه

---

(١) رَابط الجأْشِ : جريء ثابت عند الشدائد .

الأمور حرفة ، فيطلب منه أن يبحث عن الفال في كتاب ، ومن هامَ في كل وادٍ ، واتبع كل ناعق ، صرف الله عنه عنايته وأخرجه من عباده الصادقين ، وأخطأ طريق التربية والهداية الربانية ، وظل يهيم في هذه الأودية ، ويَتِيه في مهامه الأوهام والأحلام إلى أن يتلف ويهلك ، فمنهم من تمذهب بمذهب الدهريِّين ، ومنهم من سلك مسلك المُلحدين ، ومنهم من دخل في غمار المشركين ، ومنهم من ابتلي بالسفسطة .

وأما مَن تَوَكَّلَ على الله ، ولم تتشعَّب به المذاهب عدَّه الله ، وفتح الله عليه طريق الهداية ، وهدى قلبه ، فأذاقه حلاوة الإيمان ، وغشيته غاشية من السكينة ، ورُزق من اجتماع الخاطر ورباطة الجأْشِ ، وبرد اليقين ، وهدوء النفس ما لا سبيل إليه لِمَن تَشَتَّتَ فكرُه ، وتفرَّق هواه ، ثم إنه لا يخطئه ما قُدِّرَ له وقُسِّمَ ، ولكن ضعيف العقيدة متشتِّت البال يُعاني الحزن والقلق من غير جَدْوَى ، والمؤمن المتوكل ، الموحد ينعم بالهدوء ، والطمأنينة والسكينة .

ومعنى ذلك أن الله عزَّ وجلَّ وعلا لا يقاس على ملوك الدنيا ، فإنهم يباشرون الأمور الخطيرة ويتولونها بأنفسهم ، أما الأمور التافهة فيَكِلُوْنَها إلى الخدم والموظفين ، فيلجأ الناس إليهم في هذه الأمور التي ليست ذات خطر وشأن ، وليس الأمر كذلك فيما يختص بالله تعالى ، فإنه هو القادر المطلق الذي يقدر على أن يصلح ما دقَّ وجلَّ من الأمور ، وإن كانت في عددها وانتشارها كنجوم السماء ، ورمال الدهناء ، وليس لأحد تصرف في مملكته ، فيحب أن يطلب منه الأمر التَّافِه كما يحب أن يطلب منه الأمر الجليل ، والعطاء الجزيل ، لأنَّ أحداً لا يملك شيئاً سواء الصغير منه والكبير ، والدقيق والجليل .

تحذير النبي ﷺ لأهل قرابته من الاعتماد على نَسْبه إليه وقَرَابَتِه منه والاستغناء بهما عن العَمل :

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة [رضي الله عنه] قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾(1) دَعا النبي ﷺ قرابته ، فعمَّ وخصَّ ، فقال : « **يا بني كَعب بن لُؤي أنقِذُوا أنْفُسَكُم مِنَ النَّارِ ، فَإنّي لا أملِكُ لَكُمْ مِنَ الله شيئاً ، أو قالَ : فإني لا أَغْنِي عَنكمْ منَ الله شَيئاً ، وَيَا بَنِي مرَة بنِ كعبٍ أنقِذُوا أنفُسَكُمْ مِن النّار ، فإنّي لا أَغْني عنْكُمْ مِنَ الله شَيئاً ، ويَا بَني عَبْدَ شَمْس أنقِذُوا أنفُسَكُمْ من النّار ، فإنّي لا أَغْني عنْكُمْ مِنَ الله شَيئاً ، ويا بني عبد مَناف أنقِذُوا أنفُسَكُمْ من النّار ، فإنّي لا أغْني عنْكُمْ مِنَ الله شَيئاً ، ويا بني هاشم أنقِذُوا أنفُسَكُمْ من النّار ، فإنّي لا أغْني عنْكُمْ مِنَ الله شَيئاً ، ويا بني عبد المطلب أنقِذُوا أنفُسَكُمْ من النّار ، فإنّي لا أغْني عنْكُمْ مِنَ الله شَيئاً ، ويا فاطِمَة أنْقِذِي نَفْسَك مِنَ النّار ، سَلِيْني ما شِئْتِ مِنْ مَالِي فإنّي لا أَغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئاً** »(2) .

ومن المشاهد المجرَّب أن الذين يتصلون بأحد الصالحين أو المشايخ بنسب يعتمدون على نصرته ، وقد يأمنون مكر الله ثقةً بهذا النسب ، وتَيْهاً ودلالًا بهذه الزُلفى ، لذلك أمر الله نبيَّه ﷺ أن يحذر من يتصل به بنسب أو قرابة عن هذا الغرور ، والاسترسال في الأماني والأحلام ، وقد فعل

---

(1) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ .

(2) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا ، رقم الحديث (٢٥٤٨) وفي المناقب (٣٢٦٤) ، وفي تفسير القرآن (٤٣٩٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٠٣) ، والترمذي في تفسير القرآن ، (٣١٠٩) ، والنسائي في الوصايا (٣٥٨٤) ، و(٣٥٨٦) ، وأحمد في مسنده (في باقي مسند المكثرين) (٨٢٤٦) و(٨٣٧٢) و(٨٨١٢) و(٩٤١٧) ، والدارمي في الرقاق (٢٦٣٢) .

ذلك رسول الله ﷺ فعَمَّ وخَصَّ ، ولم يترك في هذا التحذير بِنْتَه التي هي بِضْعَة[1] منه ، وأَحَبُّ الخلق إليه ، وقد أوضحَ ﷺ أن الإنسان يُوفي حق قريبه ، ويصله فيما يملكه فحكمهم في ماله ، وخيرهم أن يسألوه ما شاؤوا ، أما أمور الآخرة أو الحساب والكتاب فإنه لا يملك منها شيئا ، ولا يستطيع أن يدافع عن أحد ، أو يحتج لأحد ، فيجب على كل واحد أن يعنى بإصلاح شؤونه ، ويسعى في الخلاص من النار ، وقد دلَّ هذا الحديث على أن القرابة أو النسب لا يُغْنِيان عن الإنسان شيئاً ، ولا ينفعان عند الله .

***

(١) **البِضْعَة** : القِطْعَة من اللحم وغيره .

الفصل السادس

في
ردّ الإشراك في العقيدة

رَدُّ الإشراك في العبادة(١)

الدعوة إلى التوحيد الخالص ، ونَبْذ الشرك ، قديمةٌ ومتصلةٌ :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(٢) .

---

(١) العبادة تعني الأمور التي خصها الله لتعظيمه ، وبينها للبشر ، حتى لا يشركوا فيها غير الله . (المؤلف) .

(٢) سورة هود ، الآية : ٢٥ ـ ٢٦ .

وقد اتفق علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، وكل من يحتج بقوله وعمله من الفقهاء والداعين إلى الله ، على أن السجود سواء سجود العبادة أو سجود التحية والتعظيم لا يجوز إلا لله تعالى ، هذا عدا الأحاديث الصحيحة التي بلغت حد الاستفاضة ، وقد صرح فقهاء المذهب الحنفي ، وأئمته بحرمة سجود التحية ، وأفتى بعضهم بكفر من يفعل ذلك ، قال شمس الأئمة السرخسي في « **المبسوط** » : « من سجد لغير الله تعالى على وجه التعظيم كفر » وقال العلامة ابن عابدين في « **ردِّ المختار** » ، الجزء الخامس ، صفحة ١٧٨ : « يكفر بالسجدة مطلقاً » ، وقال العلامة ابن حجر في « **الإعلام بقواطع الإسلام** » : « ما يفعله كثيرون من الجهلة الظالمين من السجود بين يدي المشايخ فإن ذلك حرام قطعاً بكل حال سواء كان للقبلة أو لغيرها ، وسواء قصد السجود لله ، أو غفل » وقد جمع الشيخ أحمد رضا خان البريلوي (ستوفى سنة ١٣٤٠هـ) ، مئة وخمسين نصاً فقهياً في حرمة سجود التحية في رسالة « **الزبدة الزكية [لتحريم سجود التحية]** » فلتراجع [م] .

وقال الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ستوفى سنة ١٠٣٤هـ ، في رسالة له كتبها إلى أحد أصحابه ، وقد بلغه أن بعض أصحابه يسجدون له سجدة التحية ، فلا يشدد في منعهم عن ذلك ، قال رحمه الله : « يا أخي إن السجود الذي وهو عبارة عن وضع الجبهة على الأرض يدل على غاية الذل والافتقار ، وكمال العجز والتواضع ، لذلك خصص هذا النوع من التذلل والتواضع لعبادة الله تعالى ، ولم يؤذن به لغير الله » (رسالة عدد ٢٩٢ إلى=

فقد دَلَّت هذه الآية على أن الصِّراع بين المسلمين والكفار بدأ من عهد نوح عليه السلام ، فما زال الصادقون من عباد الله ينهون عن أن يعظِّم أحد من الخلق تعظيماً يليق بالله تعالى ، وعن أن تُصرف إليه أعمال تقصد منها غاية التعظيم والذل والتواضع ، وهي مختصة بالله تعالى ، وظَلَّتِ الحرب قائمة بين الفريقين على قدمٍ وساقٍ ، لم تضع أوزارَها .

السُّجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى :

وقال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[1] .

فقد دَلَّت هذه الآية على أن السجدة من أعظم شعائر العبادة ، وهي مختصة بالخالق عزَّ وجلَّ ، فلا تجوز لمخلوق ، وقد يساوى في هذه الصفة القمرُ والشمس ، والنبيُّ والوليُّ ، ومن قال إنه قد جاز السجود في الأديان القديمة لبعض المخلوقات ، ونقل ذلك بالخبر الصحيح ، فصَحَّ سجود الملائكة لآدم ، وسجود يعقوب ليوسف ، فلا بأسَ أن نسجد لشيخ أو وليٍّ ، وهذا باطل ، فقد جازت أشياء في الأديان السابقة ، وحرِّمت في ديننا ، وقد أُبِيْحَ النكاح بالأخوات الشقيقات في عهد آدم ، فهل يبيح هؤلاء المحتجون بهذه الدلائل أن يتزوَّج الأخوة أخواتِهم ؟ .

والأصل أن العبد مكلَّف بامتثال أمر ربِّه ، فعليه أن يتمثَّلَ أمره عن رضا وطواعية نفس ، لا يجد في نفسه حرجاً مما أمر به ، ولا يحاج ولا يتشبث بأمور الأولين وأخبارهم ، لأن هذا يؤدِّي إلى الكفر ، ومثل ذلك

= السيد محمد نعمان ، وهي من ضمن رسائل الإمام أحمد السرهندي)[م] .

(١) سورة فصلت ، الآية : ٣٧ .

أن مَلِكاً أصدر مرسوماً في مملكته ، وبقي هذا الأمر مدة ، ثم نسخ ، وأبدل بمرسوم آخر ، فمن قال : إني سأظِلُّ متمسِّكاً بالمرسوم الأول ، ولا أَقبَل المرسوم الجديد ، أَعتبر خارجاً على الملك محارباً له .

ضلال الناس فيمن يعتقدون فيهم الصَّلاح والفضل :

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[1] .

والعادة أن الإنسان إذا أخلص في الدُّعاء والنِّداء ، وصَحَّ ما بينه وبين الله ، اعتقد الناس أنه بلغ في الولاية والروحانية منزلة يقدر فيها على أن يُعطى من شاء ما شاء ، وينزع ممَّن شاء ما شاء ، فيتهافتون عليه تهافت الفراش على النور ، ويكادون يكونون عليه لِبْداً[2] ، فينبغي لهذا العبد الصالح أن يبيِّن الحقيقة ، ويميِّز الحق من الباطل ، فيُنهي عن دعاء غير الله ، وينفي عن الخلق القدرة على النفع والضُر ، ويوضِّح أن من دعا غير الله ، ورجا منه النفع ، ودفع الضر فقد أشرك ، ويعلن أنه بريء من هذا الشرك ، غير راضٍ عن هذا العمل .

وقد دَلَّت هذه الآية على أن المُثُول بغاية الأدب والتواضع كما كان الشأن في مجالس ملوك فارس ، وكما هو الشأن في معابد الوثنيِّين عند الأصنام والهياكل ، والسَّدنة والكهان ، أمام شيخ صالح ، أو عظيم المنزلة في الروحانية والربانية ، كأنه في الصلاة ، ونِداؤه من قريب وبعيد ، واللهج باسمه باستمرار ، كأنه اسم من أسماء الله الحُسنى ، من

---

(١) سورة الجن ، الآية : ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) **اللِّبْدُ** : كل شعر أو صوف متلبّد ، وما يُوضَع تحت السَّرج .

الأعمال التي خصَّها الله لتعظيمه ، ومن أشرك فيها غيره ، فقد أشرك بالله .

المناسك ومظاهِر العظيم الأقصى وشعائر الحُبِّ والتَّفانِي ، خاصة بالبيت والحرم :

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[١] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ[٢] وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[٣] .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خصَّصَ أمكنةً لتعظيمه ، كالكعبة ، وعرفات ، والمُزْدَلِفة ، ومِنَى ، والصَّفا والمَرْوَة ، ومقام إبراهيم ، والمسجد الحرام كله ، ومكة كلها ، والحرم كله ، وألهم الناس شوقاً لزيارتها ، والحنين إليها ، فيتوجهون إلى هذه الأمكنة رجالًا ورُكْباناً ، ويأتون إليها من كل وادٍ عميق ، ومرمى سحيق ، ويتجشَّمون في سبيلها مشاق السفر ، وعناء التنقل ، يَصِلُون إليها غَبِراً شَعِثاً ، متبذِّلين في الثياب ، زاهدين في الشارات والمظاهر ، فيذبحون هنالك الأنعام لله تعالى ، ويُوفون نذورَهم ، ويطوفون بالبيت ، ويقضون لُبَانَـتَهم[٤] من تعظيم الله تعالى ، الذي غمر نفوسهم وقلوبهم ، ويرضون

---

(١) ضَامِر : بعير مهزول مِن الشُّقَّة .
(٢) ليَقْضُوا تَفَثَهم : ثم ليُزيلوا بالتحلُّل أوساخَهُم أو ثُمَّ ليُؤدُّوا مَنَاسِكهم .
(٣) سورة الحج ، الآية : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٤) لُبَانَتَهم ، أي : حاجَتَهم ، ولكن من نَهْمة ، يُقال : ما قَضيتُ منه لُبانتي ، أي : نهمتي .

هنالك عاطفة الحُبِّ والحنان ، التي ملكتهم .

ويذهبون في ذلك مذاهب شَتَّى ، ويتفنَّنون فيه ، فمِنهم من يستلم عتبة البيت ويقبلها ، ومنهم من يقف داعياً أمام الباب ، ومنهم من يتضرع متشبِّثاً بكسوة الكعبة ، ومنهم من يعتكف عنده، فيَصِلُ بياض النهار بسواد الليل عاكفاً على عبادة الله ، منصرفاً إلى ذكره ، إلى غير ذلك من مظاهر التعظيم ، وشعائر الحُب والتفاني ، والله يرتضيها ويُثيبهم عليها في الدين والدنيا ، فلا تجوز هذه الأعمال المختصَّة بهذه الأمكنة لتعظيم شيء آخر ، شخصاً كان أو قبراً ، أو مكانَ عبادةٍ لرجل صالح ، أو نصباً لصنم .

الحجُّ وأعماله لا تجوز إلا للبيت :

ومن الشرك أن يقصد الإنسان هذه الأمكنة من أنحاء بعيدة ، ويشدَّ إليها الرِّحال ، ويتجشم في سبيلها المشاق ، والمصاعب ، يصل إليها متبذلًا متوسِّخاً أَغْبَرَ وأَشْعَثَ ، ويذبح هنالك الأنعام ، ويوفي بالنذور ، أو يطوف حول قبر أو بيت ، ويتأدب مع الغابة التي تحيط بهذا المكان ، ولا يصطاد هناك صيداً ، ولا يعضد شجرة ، ولا يقتطع عشباً ، ويرجو من ذلك الثواب والنفع في الدنيا والآخرة[١] ، لأن هذه الأعمال كلها مختصة بالخالق جلَّ وعلا .

---

(١) كما يفعله كثير من الغلاة والجهلة حين يشدون الرحال إلى المشاهد وأضرحة الأولياء في الهند وإيران ، ولهم في ذلك آداب والتزامات وأحكام تضاهي آداب الحج والتزاماته وأحكامه وقد تفوقها في الدقة والاحتياط والخشوع [م] .

تخصيص الحيوانات للصَّالحين ، والتقرُّب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم حرامٌ :

قال الله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[1] .

والمراد به دابّة أو حيوان خصِّص لغير الله ، فلا يمس بسوء ، ويعيش مدلَّلاً محترماً ، وإذا ذبح ذبح إرضاءً لمن خصص به ، وتقرباً إليه[2] ، فإنه حرام ونجس ، كالخنزير ، والدَّم ، والميتة ، لا فرق بينها وبين هذا الحيوان ، ولم تقيِّد الآية بأن يذكر عليه اسم مخلوق عند الذبح[3] ، بل

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٣ .

(٢) قد شدد فقهاء المذاهب التي عليها الاعتماد ، وعلماء الإسلام الذين يحتج بقولهم ، على حرمة هذا الفعل ، وألحق كثير منهم هذه الحيوانات بالميتة ، وغير المذكى ، راجع تفسير آية : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٣] في كتب التفسير ، وأحكام القرآن ، راجع كتب الفقه في المذاهب الأربعة وغيرها ، وقد أفاض في تحقيقه الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي في « تفسير فتح العزيز » وأجاد ، فليراجع .
وقد بالغ الفقهاء في المنع عن الذبح لغير الله تعظيماً وإجلالاً ، حتى حرموا ما يذبح لقدوم أمير أو عظيم تقرباً إليه وتعظيماً له ، جاء في « الدر المختار » الجزء الخامس ، صفحة ١٩٦ ، على هامش « ردّ المختار » : (ذبح لقدوم الأمير ونحوه) كواحد من العظماء (يحرم) لأنه أهل به لغير الله ، (ولو ذكر اسم الله تعالى ، انتهى [م] .
وعلى ذلك اتفق المشايخ المحققون ، والراسخون في العلم ، يقول الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي في رسالة كتبها إلى إمرأة صالحة من أتباعه : « اعتاد كثير من الجهال أن ينذروا حيوانات لمشايخهم ، وللصالحين ، والأولياء ، ويسوقونها إلى قبورهم فيذبحونها ، وقد عده الفقهاء فيما نقل عنهم شركاً ، وشددوا في ذلك ، وصرحوا بالتشنيع عليه ، والتحذير منه ، وقد عدوا ذبح هذه الحيوانات من ضمن الذبائح التي كان يذبحها المشركون للجن طمعاً في رضاهم ، وخوفاً من سخطهم ، (مكتوب رقم ٤١/ ٣٥) [م] .

(٣) راجع في « فتح العزيز » للإمام عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي (صفحة ٤١٥ المطبة المحمدية) تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٧٣] ، تجد بحثاً وافياً في هذا الموضوع ، ونقولاً عن أئمة المذاهب وكبار المفسرين [م] .

إنها اقتصرت على أن كلَّ حيوان نُسب إلى مخلوق واشتهر به حرامٌ ونجسٌ ، كالبقرة المنسوبة إلى السيد أحمد الكبير ، أو التيس المنسوب للشيخ سَدُّو[١] ، فكل حيوان دجاجة كانت أو بعيراً نسب إلى مخلوق « تقرُّباً إليه » واشتهر بهذه النسبة ، كان حراماً ونجساً ، سواءاً نسب إلى وليٍّ أو نبيٍّ ، أو أب أو جد ، أو عفريت أو جنية ، ومن فعل ذلك ، تحقق عليه الشرك .

شُركاء مُتشاكِسُون[٢] ، وأسماء من غير مسمَّيات :

قال الله تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[٣] .

من المقرَّر أن العبد الذي كان فيه شركاء مُتَشَاكِسُون في نصب وعذاب ، إن العبد هو الذي كان له سيد قاهر يتكفل بقضاء حاجاته ، وإصلاح شؤونه .

وبصرف النظر عن ذلك ، فإنه لا وجود لهؤلاء السادة الأرباب الذين يُشركهم الجهال في ملك الله وملكوته ، إنما هم من نَسْج الخيال ، فمن الجهال من يتخيَّل أن فلاناً بيده إنزال الأمطار ، وإرسال السَّحاب ، وفلاناً بيده الإنبات وإخراج الحَبِّ ، ومنهم من يرزق الأولاد ، ومنهم من

---

(١) شخصية خيالية لا وجود لها ، وغالب من يعتقد فيها ويذبح لها لقضاء الحوائج ، وأداء النذور ، النساء (راجع « **معجم نور اللغات** » الجزء الثالث ، صفحة ٤٦٢) .

(٢) مُتَشَاكِسُون ، أي : مختلِفُون مُتَنازِعُون .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٣٩ ـ ٤٠ .

يمنح الصحة والشفاء ، ثم يخرقون لها أسماء ، فيسمُون بعضها ببعض الأسماء التي يخترعونها ، ثم يعكفون عليها عبادة ودعاء ، ونداء ، ثم يمضي على ذلك زمان فينتشر في الناس ، ويتمسَّكون بهذه العقائد والعادات ، وما هي إلا تخيُّلات ، لا وجود لها في الحقيقة ، فليس لهذه المسمَّيات وجودٌ في العالم[1] ، وإذا وجد أحد بهذا الاسم فإنه لا سلطان له في هذا الكون ، ومجاري الأمور ، والذي يملك أزِمَّة الأمور ، هو الله وحده ، وليس من أسمائه محمَّد أو عليٌّ ، أما الذين سَمَّوا بهذه الأسماء ، فهم لا يملكون من هذا العالم شيئاً ، أما الذي يُنادَى بمحمد أو بعلي ، ثم يُملَّك هذا العالم ، فلا وجود له البتة ، إنما هي أسماء سَمَّاها الجهال ، وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان ، ومن عارض أم الله بأمره رُفِض ولم تكن له قيمة ، وقد نهى الله عن الاسترسال في أمثال هذه الأوهام والأحلام ، وإن لُبَّ الدين وجوهرَه هو أن يمتثل العبد أوامر الله ، ويُؤثرها على كل أمر ، وعلى كل ما شاع في الناس من الأساطير والتقاليد ، ولكن أكثر الناس مع الأسف لا يسلكون هذا الطريق ، ويُؤثرون تقاليد مشايخهم وأعرافهم على أمر الله تعالى .

وقد ظهر من هذه الآية أن التمسك بشرعة ومنهاج ، واللُّجوء إلى أمر يستند إليه ، هو من الأمور التي خصَّصها الله لتعظيمه ، فمن عامل

---

(١) اقترن الشرك والوثنية بالزور والاختلاق في أكثر الأمم والطوائف ، حتى كأنهما رضيعا لبان ، وخدنان لا يفترقان ، وقد شاعت في كل بلاد تمسكت بالشرك ، وانقطعت صلتها عن تعاليم الأنبياء وصحفهم ، مشاهد وضرائح منسوبة إلى شخصيات خيالية ، أو أسطورية لا وجود لها البتة ، وقد كثر التزوير في قضية الأمكنة التي تزار وتشد إليها الرحال ، والضرائح والمشاهد التي تقصد من أنحاء بعيدة ، ولم يصح منها إلا القليل النادر ، وكان من معجزات القرآن ، أنه قرن الشرك بالزور ، فقال : ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴾ [سورة الحج ، الآية : ٣٠] .

مخلوقاً بذلك تحقَّق عليه الشرك ، ولا طريق للعباد للاهتداء إلى شريعة الله وأحكامه إلا الرسول ، فمن آثر كلامُ إمامٍ أو مجتهد ، أو « غوث » أو « قطب »[1] ، أو عالم أو شيخ ، أو أب أو جد ، أو ملك أو وزير ، أو قَسّ[2] أو سَادِن[3] ، وطريقتهم على قول الرسول[4] ، واحتج بقول شيخ أو أستاذ معارضاً لآية أو حديث ، أو اعتقد عن النبي ﷺ أنه هو الشارع الأصلي وأنه كان يتكلم عن الهوى ، وما تُوحي إليه نفسُه ، فيفرض ذلك على أمته ، فقد أشرك ، إن الحكم إلا لله ، والرسول هو المُخبِر الصادق ، فما وافق إخباره من كلام الناس قَبِلَ ، وما خالفه رُدَّ .

غاية التعظيم في التذلُّل والخشوع من حقِّ الله تعالى :

أخرج الترمذي عن مُعاوِية [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّل لَهُ الرِّجَالُ قِياماً فَلْيَتَبوّأ[5] مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** »[6] .

---

(١) على تعبير الناس وتسميتهم .

(٢) **القَسُّ** : رئيس من رؤساء النَّصارى في الدين ، وهو الآن في مرتبة بين الأُسقف والشماس .

(٣) **السَّادِن** : خادم الكعبة ، ويُقال : هو سادِن فلانٍ وآذِنه : لحاجبه .

(٤) لأن المقصود هو اتباع الله ورسوله ، والعلماء المجتهدون وأئمة المذاهب شرَّاح لكلام الله ورسوله ، يشرحون الغامض ، ويقربون البعيد ، ويميزون بين الصحيح والضعيف ، والناسخ والمنسوخ ، والمجمل والمفصل ، ويكفون من لم تتوفر عنده شروط الاجتهاد والترجيح ، وصلاحية النقد والتنقيح ، ولمن بعد زمانه ، مؤونة البحث والتحقيق ، فمن أخذ بقولهم أخذ به كقول شارح ومعلِّم ، وصاحب اختصاص في الفن ، وتكليف العامي بالاجتهاد والتحقيق تكليف بما لا يطاق ، أما من آثر قول مجتهد على النصوص الشرعية لمجرد هوى أو عصبية ، أو حمية جاهلية ، كان تابعاً لهواه غير متبع سبيل المؤمنين [م] .

(٥) **يَتَبَوَّأ** : ينزل ويتَّخِذ .

(٦) أخرجه الترمذي في الأدب ، رقم الحديث (٢٦٧٩) وقال : هذا حديث حسن ، **والنسائي** في الأدب ، (٤٥٥٢) .

وهذا وعيدٌ شديدٌ لِمَن أحبَّ أن يقف الناس أمامه وَاضِعِي أيمانهم على شمائلهم في غاية الأدب والتواضع ، كتماثيل لا تتحرَّك ولا تتكلَّم ، ولا تنظر يميناً ولا شمالاً ، وقد أَوْعَده الرسول ﷺ بجهنمَّ ، فإنه أحبَّ أن يعظِّمه الناس بما يعظِّمون به الله إذا وقفوا للصلاة واضعي يُمناهم على يُسراهم في أدب وخشوع ، فكأنه ادَّعى الألوهية وتشبَّه بالله ، وقد ظهر من هذا الحديث أن المثول أمام عظيم أو كبير في أدب وتواضع لا يقصد به إلا التعظيم من الأمور التي خصَّصها الله تعالى لتعظيمه .

أتعبدون ما تنحتون ؟

أخرج الترمذي عن ثَوْبَان [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتّى تَلْحَقَ قَبَائلُ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِيْنَ ، وحَتّى يَعْبُدوا الأوْثَان** »[1] .

ويفهم من هذا الحديث أن الشرك نوعان :

النوع الأول : أن يُجعل لأحد تِمثال ثم يُعبد ، ويقال له في اللغة العربية « صَنَمٌ » .

والنوع الثاني : أن يخصَّص بيت أن شجرة ، أو حجر ، أو خشب ، أو قرطاس ، ويُنسب إلى أحد ثم يُعبد ، ويُجل ويُعظَّم ، ويقال له في العربية « وثن »[2] . ويدخل فيه القبر ، ومكان جلس فيه أحد

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ، رقم الحديث (٢١٤٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح . **وأبو داود** في الفتن والملاحم (٣٧١٠) ، **وابن ماجه** في الفتن (٣٨٤٢) ، **وأحمد** في مسنده (في باقي مسند الأنصار) (٢١٣٦١) .

(٢) لعل المؤلف رحمه الله بنى كلامه هذا على ما نقل عن بض أئمة اللغة ، أن الصنم ما كان=

الصالحين ، واعتكف للأربعين ، أو عكف على العبادة والرياضة ، ويدخل فيه اللحد ، أو عود يُنسب إلى أحد الصالحين والأولياء ، أو ضريح مصنوع من القرطاس منسوب إلى سيِّدنا حسين بن علي [رضي الله عنهما] ، والعَلم ، و« مَيْنهدي »[1] فيعظمون كل ذلك ، ويقدمون إليه النذور ، والقرابين ، ويصنعون لبعض الشهداء طاقاً وعَلماً ، ومدفعاً ويقربون إليه الأنعام ، ويحلفون به ، ويدعونه .

وقد أخبر النبي ﷺ ، أن المسلمين الذين يُصبحون فريسة الشرك والوثنية عند دُنُوِّ الساعة ، وفي آخر الزمان ، يكون شركهم من نوع العكوف على أشياء تُنسب إلى السابقين ، فيعتقدون في هذه الأشياء النفع والضرر ، ويغلون في تقديسها وتعظيمها .

الذبح تقرُّباً وتعظيماً من حقِّ الله تعالى :

أخرج مسلم عن أبي الطُّفيل أن علياً رضي الله عنه أخرج صحيفةً

= على صورة خلقة البشر ، والوثن ما كان على غيرها ، نقله الزبيدي في : « **تاج العروس** » عن شرح الدلائل (الجزء الثامن ، صفحة : ٣١) ، ويؤيده ما قاله ابن منظور في : « **لسان العرب** » (الجزء الخامس عشر ، صفحة : ٢٤١) نقلاً عن عرفة ، قال : ما اتخذوه من آلهة فكان غير صورة فهو وثن ، فإذا كان له صورة فهو صنم ، وتفرقت أقوال أئمة اللغة في تفسيرهما ، والفرق بينهما ، فمنهم من قال بالعكس ، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيَين ، ويظهر من تتبع الآيات والأحاديث ، وكلام العرب ترجيح القول الأول ، وهو الذي اعتمد عليه المؤلف ، والله أعلم [م] .

(١) لعلَّ أراد به العلاَّمة المؤلِّف « مِهِنْدِي » وهو الحِنَاء بالعربية : شجرٌ ورقه كورق الرُّمان وعيدانه كعيدانه ، له زهر أبيض كالعناقيد ، يتَّخذ من ورقه خِضَاب أحمر ، يلوِّن به بعض الغُلاة الشيعة (في الهند) هيكلاً ، ويذهبون به اليوم السابع من شهر المحرم إلى مساجدهم ، ويخصِّصونه باسم السيِّد قاسم رضي الله عنه .

فيها : « **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ** »(١) .

وقد دَلَّ هذا الحديث على أن الذبح لله من الأعمال التي خصَّصها الله لتعظيمه ، ومن ذبح لغير الله فقد أشركَ .

عودة الجاهلية في آخر الزمان :

أخرج مسلم عن عائشة [رضي الله عنها] قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **لا يَذْهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ ، حَتّى تُعْبَدَ اللاّتُ(٢) والعُزّى(٣)** ، فقلتُ : يا رَسُولَ اللهِ : إن كُنْتُ لأظنّ حِين أنزلَ الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾(٤) أنَّ ذَلِكَ تامّ ، قالَ [ﷺ] : **إنَّهُ سَيَكُون مِنْ ذَلِكَ ما شَاءَ اللهُ ، ثمّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحاً طيّبةً ، فتُوَفَّى كُلُّ مَنْ في قلبِهِ مِثْقَالُ حبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمَانٍ ، فَيَبقَى مَنْ لا خَيْرَ فِيْهِ ، فَيَرْجِعُوْنَ إلَى دِيْنِ آبَائِهِمْ** »(٥) .

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على أن لِلشِّرك القديم ، والوثنية البائدة عودةً

---

(١) رواه مسلم في كتاب الأشربة ، رقم الحديث (١٩٧٨) ، والحديث بكامله : عَنْ أبي الطّفيل قال : قُلْنا لعليّ (بن أبي طالب) : أخْبِرْنا بشيء أسرّه إليك رسول الله ﷺ فقَالَ : مَا أَسَرَّ إلَيَّ شَيْئاً كَتَمَهُ النَّاس وَلكني سَمِعْتُهُ يقُولُ : « **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ** » .

(٢) **اللاّت** : اسم صنم كان لقبيلة ثقيف بالطّائف ، يُعبد في الجاهلية .

(٣) **العُزّى** : صَنَمٌ كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمر كانت لغطفان ، بنوا عليها بيتاً ، وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليه الرّسول ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم البيتَ وأحرق السَّمرة .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ ، والصف ، الآية : ٩ .

(٥) انفرد به مسلم ، وأخرجه في كتاب الفتن وأشراط الساعة . رقم الحديث (٢٩٠٧) .

وانتشاراً في آخر الزمان ، وقد تحقَّق ما أخبر به الرسولُ ﷺ ، فقد بدأ الشرك القديم الذي ظنَّ كثير من الناس أنه قد انقرض ينتشر بجوار ما يفعله المسلمون مع النبي ﷺ ، والأولياء ، والأئمة ، والشهداء من الأعمال الشركية ، فمنهم من يُؤمن بتماثيل الكفار فيقلِّدونهم في عاداتهم وتقاليدهم ، مثل السؤال من سَدَنَة الهياكل ، وبيوت الأصنام ، واللُّجوء إليهم في المعضلات والمبهمات ، مثل « دِيْوَالِي »[1] في الهند و « النُّوْرُوز »[2] و « المِهْرَجَان »[3] من أيام الفُرس والمجوس ، والاعتقاد في القمر والعقرب تحت الشعاع ، وهذه كلها من عادات الهنادك والمجوس التي انتشرت في المسلمين ، وقد تبيَّن من ذلك أنَّ الشرك يتسرَّب إلى المسلمين ، إذا هجروا القرآن والحديث ، وتمسَّكوا بعبادات الآباء والأجداد ، وتقاليدهم .

فتنة الشيطان في آخر الزمان :

أخرج مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُماَ قاَلَ : قاَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَبْعَثُ اللهُ عِيْسَى بْن مريمَ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيْحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ ، لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ إِيمانٍ إلا قَبَضَتْهُ ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ**

---

(١) دِيْوَالي : احتفال عند الهندوس ، ينوِّرون فيه الأضواءَ ، ويخصِّصون فيه بعبادة صنمٍ يسمّونه « تَكْشمِي » .

(٢) النُّورُوز (بالفارسية) : اليوم الجديد ، وهو أوَّل يوم من السنة الشمسية الإيرانية ، ويُوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية ، وعيد النوروز أكبر الأعياد القومية للفرس .

(٣) المِهْرَجَان : احتفال الاعتدال الخريفي ، وهي كلمة فارسية مركَّبة من كلمتين : الأولى : « مِهْر » : ومن معانيها الشمس ، والثانية : « جَانْ » ومن معانيها : الحياة والروح .

فِي خِفَةِ الطَّيْرِ ، وأَحلاَم السِّباعِ[1] لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوْفَاً ، وَلَا يُنْكِرُوْنَ مُنْكَراً ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُوْلُ : أَلَا تَسْتَجِيْبُونَ فَيَقُوْلُوْنَ مَاذَا تَأْمُرُنَاْ ؟ فَيَأْمُرُهمْ بِعِبَاْدَةِ الأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكِ دارٌّ[2] رِزْقُهمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهمْ »[3] .

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على أنه ينقرض الجيل المؤمن ، الراسخ في العلم ، ويخلفه السفهاء الذين طاشت أحلامهم ، وخفَّت أجسامهم ، وقويت ضَرَاوتهم ، وأسفُّوا إلى مستوى الحيوانات ، وفقدوا صلاحية التمييز بين الخير والشَّر ، فلا هَمَّ لهم إلا ابتزاز الأموال ، والتهام الحرام ، فيأتيهم الشيطان ، ويقول لهم : إنه من العار أن يعيش الإنسان بلا دين وطريق ، فيقبلون على الدين ، ويبحثون عنه ، ولكنهم لا يصدرون عن كلام الله ورسوله ، بل يحكمون عقولهم (الحيوانية الصِبْيَانِيَّة) فيخترعون طُرقاً في الدين ، ويتردُّون في مستنقع الشرك ، فيُوسع لهم في الرزق ، ويطيب عيشهم ، فيزدادون بذلك إيغالاً في الشرك ، وبعداً عن الهدى ، اغتراراً بأنهم كلَّما ازدادوا هياماً بهذه الأنصاب والأوثان ، ازدادوا سَعةً في الرزق ، ونجاحاً في المآرب .

فيجب أن يحذر الإنسان مكر الله ، لأن العبد قد يكون مشركاً ، طالباً من غير الله تحقيق أمانيه ، وقضاء مآربه ، فيقضي الله حاجاته ، ويعطيه سؤله امتحاناً وإمهالاً ، ويحسب أنه يُحسن صُنعاً ، فلا يثق الإنسان بالنجاح ولا بالخيبة في الأماني والرغبات ولا يجعلها ميزاناً لخيرٍ أو شرٍّ ،

---

(١) أحلام السباع : أي : أخلاق الوحوش في الظلم والعدوان .

(٢) دارٌّ : كثير .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، رقم الحديث (٥٢٣٣) ، وأحمد في مسنده (في مسند المكثرين من الصحابة) (٦٢٦٨) .

وحقٍّ أو باطلٍ ، ويترك دين الحق دين التوحيد ، لعدم تحقُّق بعض الرغبات والخيبة في بعض الآمال .

وقد دَلَّ الحديثُ على أن الإنسان مهما غاص في المعاصي ، وطرح الحشمة والحياء ، ولم يقصِّر في أكل أموال الناس بالباطل ، ولم يميِّز بين الخير والشر ، كان أفضل من المشرك ، وممن يعبد غير الله ، لأن الشيطان يرضى بأن يُقلع الإنسان عن هذه السيِّئات ، ويكشف عن الذنوب ، ويتمسك بالشرك .

وأخرج الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **لَا تَقُوْمُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ**[1] **نِسَاءِ دُوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلْصَةِ**[2] »[3] .

وقد دَلَّ هذا الحديثُ على تحريم الطواف حول كل بيت إلا حول البيت العتيق ، الذي هو بيت الله ، وُضِعَ مباركاً وهُدى للناس .

* * *

---

(١) **الأليّات** جمعها الأَلْيَة : الدبر أو مؤخرة الإنسان .

(٢) **الخَلَصَة** : هو بيت كان فيه صنم لدوس وخثعم وبجيلة وغيرهم ، وقيل : ذو الخلصة الكعبة اليمانية التي كانت باليمن ، فأنفذ إليها رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله فخرَّبها ، وقيل : ذو الخلصة : اسم الصنم نفسه ، وفيه نظر ، لأن ذو لا يُضاف إلَّا إلى أسماء الأجناس ، والمعنى أنهم يرتدُّون ويعودون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان ، فيسعى نساء بني دوس طائفات حول ذي الخلصة ، فترتج أَعْجَازُهنَّ . (انظر : « **النهاية في غريب الحديث** » ، لابن الأثير ، الجزء الثاني ، صفحة ٦٢) .

(٣) أخرجه **البخاري** في كتاب الفتن ، رقم الحديث (٥١٧٣) **وأحمد** في مسنده (في باقي مسند المكثرين) (٧٣٥٢) .

الفصل السابع

في
ردِّ الإشراك في العِبَادات

رَدُّ الإشراك في العبادات

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا[1] ﴾[2] .

ومفهوم الآية أن المشركين قُصارى جهدهم مراقبة الإناث ، وصرف الهمة إليهنَّ بجميع القوى ، وتمثلهن ، واللهج بأسمائهن لجلب المنافع ودفع المضار ، وليس هناك أنثى ولا ذكر ، إنما هو تحليق في عالم الخيال ، وتسويل من تسويلات الشيطان .

وهذا الذي قد يتسلَّط على الإنسان ، وقد يأتي بعجائب ومخاريق ، ليس إلا شيطاناً ، وإليه تصل نُذورهم وقرابينهم ، وهؤلاء يقدِّمونها إلى هذه الإناث المتخيَّلة ، ويتلقفها الشيطان فلا ينتفعون بها .

تغيير خلقِ الله بأمر الشيطان :

وقد أعلن الشيطانُ أمام الله أنَّه لا بدَّ أن يتَّخذ من عباده نصيباً

---

(١) مَحِيْصاً : مَحِيداً ومَهْرَباً ومَعْدِلاً .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٧ ـ ١٢١ .

مفروضاً ، ويُضِلُّهم ويُمَنِّيْهم ، ويأمرهم فيبتكون آذان الأنعام تقرباً إليه ، ويدخل في ذلك كل إشعار لحيوان تقرباً إلى إله أو إلهة ، وقد وعدهم الشيطان بأنه يأمرهم فيغيرون خلق الله بتغيير دينه بالشرك والابتداع .

جَحْد المشركين بنعمة الله ، وتفنُّنُهم في تعظيم غيرِ الله وشكره :

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

وقد دَلَّتِ الآيةُ على قِلة وفاء الإنسان وكُنوده ، وكُفره بالنعمة ، فقد خلقه الله ، ورزقه زوجاً يأنس بها ، وجعل بينهما مودَّة ورحمة ، فلما قرب المَخاضُ ، دعا الله ربهما لئن آتَيْتَنا صالحاً لنكون من الشاكرين ، فلما رُزِقَا الولد ، أقبلا على غير الله بالخضوع والنذر ، وتقديم القرابين ، فمنهم من يأخذ الولد إلى قبر ، ومنهم من يحمله إلى نصب ، أو إلى الأولياء المقرَّبين ، ومنهم من يقلِّده قلادة ، ومنهم من يقيِّد رجله بقيد ، ومنهم من يسمِّي ولده « عبد النبي » ، والله غني عن عبادتهم ونذورهم ، فلا يضرُّونه ، ولا ينقصون من ملكه شيئاً ، ولكن على أنفسهم يجنون ، ويستحقون سخط الله ولعنته .

تَطْفِيف الكيل مع الله ، وإيثار غيره عليه :

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٩ ـ ١٩٠ .

نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1] .

وهذا شأنهم في الزُّروع ، فهم يطفِّفون الكيل مع الله ، ويكفرون نعمة الله ، فهم أكثر أدباً ، وأشدُّ دِقَّةً في استيفاء ما قسموا لشركائهم ، فلا يتساهلون فيه ، ولا يسمحون بأن تعبث به يدٌ ، أو يعتدي عليه معتد ، أما ما كان لله فمعرض للخطر والتلف ، والزيادة والنقصان ، ينقص ولا يزداد ، وما ضمَّ منه إلى قسط الشركاء فلا بأس به[2] .

شرع ما لم يشرع ، والتزام ما لا يلزم :

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾[3] .

والمقصود أن النَّاس يشرعون شرائع ، ويلتزمون التزامات ، ليس مصدرها وحي أو تشريع إلهيٌّ ، إنما هي مجرد الأهواء والظُّنون ، فيقولون : الطعام الفلاني محظور مقدَّس يتناوله فلان ، ولا يمسُّه فلان ، وقد يسيبون أنعاماً ويحرمون ظهورها ، فلا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٣٦ .

(٢) وهذا شأن كل من كلف التقسيم أو الإنصاف بين فريقين ، فريق يتصل به بعاطفة وحب ، وخوف ورجاء ، وفريق كانت صلته به ضعيفة سطحية ، أو تقليدية قانونية ، لا يجد في نفسه اندفاعاً أو حماساً للإنصاف معه ، أو إيفائه حقه ، فيبخس نصيبه من حيث يشعر أو لا يشعر [م] .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٣٨ .

حمل ، فإنها خُصِّصت لفلان ، وقصد بها التقرب إليه فيجب تعظيمها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، وإنما ينوون بها التقرب إلى غير الله ، والذبح باسمه ، ثم يعتقدون أنهم بذلك ينالون رضا الله ، ويقضي الله بذلك حاجاتهم ، وكلُّه افتراء سيلقون جزاءه .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[(١)] .

وقد ذكر الله شيئاً من ذلك لم يشرعه الله ، إنما هو افتراء منهم ، وقد دلَّت الآية على أن تخصيص دابّة باسم رجلٍ ممن يعتقد فيهم القدرة على النفع والضرر ، والحماية والنصر وإشعارها بذلك ، وتعيين أن لا يتقرب إلى فلان إلا ببقرة ولا إلى فلان إلا بشاة ، ولا إلى فلان إلا بدجاجة ، كلها تشريعات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، والتزامات ليس مصدرها إلا السَّفَاهة ، والهَذَيان ومعارضة أحكامِ الله وشريعته .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾[(٢)] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٠٣ .
ويفسر هذه الآية ما رواه **البخاري** في صحيحه [في كتاب المناقب ، رقم الحديث (٣٢٦٠)] بسنده ، عن سعيد بن المسيِّب قال : « **البحيرة** : التي يَمْنع دَرُّها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، **والسائبة** : التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء ، قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « **رأيت عمرو بن عامر [بن لُحَيٍّ] الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب** » .
والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ، أن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر .
والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه وَدَعوهُ للطواغيت ، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي »[م] .
(٢) سورة النحل ، الآية : ١١٦ .

والمقصود النهي عن الاستبداد والافتيات ، في التحليل والتحريم ، والإباحة والمنع ، اعتماداً على الأهواء والأعراف ، والتقاليد ، والعادات ، فإن هذا من التشريع في الدين ، والتشريع من حقِّ الله سبحانه وحده .

أما ما يعتقده بعض الناس ، أن مَن فعل كذا تحقَّقت مطالبه ، وإلا أُصيب بالإخفاق ، وتطرَّق إليه الفساد ، فهذا لا أصلَ له ، فإنه لا يفلح المفتري على الله .

اعتقاد التأثير في الأنواء والكواكب في العالم ، إشراكٌ بالله :

أخرج الشيخان عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدِ الجُهَني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَىَ إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَىَ النَّاسِ فَقَالَ : « **هَلْ تَدْرُوْنَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟** قَالُوْا : اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمْ ، قَالَ : **أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِيْ مُؤْمِنٌ بِيْ ، وَكَافِرٌ بِيْ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِيْ ، وَكَافِرٌ بِالكَوكِبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ[1] كَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، وَمُؤْمِنٌ بِالكَوكَبِ** »[2] .

---

(١) **النَّوْءُ والأَنْوَاءُ** : هي ثمان وعشرون منزلةً ، ينزل القمرُ كلَّ ليلة في منزلة منها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ ويسقط في الغرب كلَّ ثلاث عشر ليلة منزلةً مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مُقابلها ذلك الوقت في الشرق ، فتنقضي جميعُها مع انقضاء السنة ، وكانت العربُ تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر ، وينسبون إليها ، فيقولون : « مُطِرنا بنَوْءِ كذا » . (**النهاية في غريب الحديث** ، الجزء الخامس ، صفحة ١٢٢) .

(٢) أخرجه **البخاري** في كتاب الأذان ، رقم الحديث (٨٠١) والجمعة (٩٨٠) والمغازي (٣٨٣٢) والتوحيد (٦٩٤٩) ، ومسلم في الإيمان (١٠٤) ، **والنسائي** في الاستسقاء =

ومغزى الحديث أن من اعتقد للنجوم تأثيراً في العالم ، وما يحدث فيه مِن الحوادث ، كان عند الله مِمَّن كفر به ، وعبد النجوم ، ومن عزا كل ما يحدث في العالم من خير وشَرٍّ ، ومن حوادث وأمور إلى الله وحده كان عند الله من عباده المقبولين ، الذين تبرَّأوا من عبادة النجوم والكواكب .

وقد دَلَّ الحديثُ على أن الإيمان بأن من الساعات ما تأتي بالسعد ومنها ما يأتي بالنحس ، وسؤال المُنَجِّمين عن ساعة سعد ونحس ، والاعتماد على ما يخبرون به ، من الشرك ، فإن لها صلة بالنجوم ، والإيمان بالنجوم ، وتأثيرها من خصائص عبادته .

الاعتماد على العَرَّافَة والكَهَانَة ، والمخبرين بالمغيبات ، كُفْرٌ :

أخرج رَزِين عَنْ اِبنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَاَلَ : قَاَلَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : **« مَنْ اقْتَبَسَ بَاباً مِنْ عِلمِ النُّجُوْمِ بِغَيرِ مَاَ ذَكَرَ اللهُ ، فَقَدْ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحرِ ، الْمُنَجِمُ كَاهِنٌ ، وَالكَاهِنُ سَاحِرٌ ، وَالسَّاحِرُ كَافِرٌ »**[1] .

ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد ذكر النجوم والكواكب في كتابه ، فإنها آية من آيات الله ، وتنطق بقدرته وحكمته ، وقد زين الله بها السماوات الدنيا ، وهي رجوم للشياطين ، ولم يذكر أن لها دخلاً في ملكوت السماوات والأرض ، أو صلة بسعادة البشر وشقائهم ، فمن عدل عمَّا ذكره الله من فوائدها إلى ما لم تخلق له هذه النجوم ، ويستدلُّ

= (١٥٠٨) ، وأبو داوود في الطب (٣٤٠٧) ، وأحمد في مسنده (في مسند الشاميين) (١٦٤٣٤) و(١٦٤٤٤) ، ومالك في الموطأ في النداء والصلاة (٤٠٥) .

(١) شرح سنن ابن ماجه للإمام السيوطي ، الجزء الأول ، صفحة (٢٦٥) .

بها على الغيب ، وتودد إلى الجن ، كما يفعل السحرة بالإيمان بهم ونداءهم ، وتقديم النذور والقرابين إليهم ، فهذا كله من الكفر .

أخرج مُسلم عَنْ حَفْصَةَ زَوْجُ النَّبِي ﷺ قَالَتْ : قَالَ النَّبِي ﷺ : « **مَنْ أَتى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُقْبَلْ لَهُ صَلاَةُ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً** »[1] .

وقد عرفنا من هذا الحديث أن من أَتى العرَّاف الذي يدعي الإخبار بالغيب ، لم تقبل عبادته أربعين يوماً ، لأنه قد أشرك ، والشرك يطمس نور العبادات كلها ، ويدخل في هذا الحكم المنجِّمون والرمَّالون ، ومن يدَّعي الاطلاع على الغيب ، والإخبار به عن طريق الاستخارة بالقطع والبَتِّ[2] .

مظاهر ضَعْف الاعتقاد والسَّخَافة في أهل الجاهلية ، ومُقَلِّديهم من المُسلمين :

ويؤيِّد هذا الحديثُ أحاديث أخرى صحيحة ، منها ما أخرج أبو داود ، عَنْ قُبَيْصَةَ [رضي الله عنه] أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ : « **العِيَافَةُ**[3] ، **وَالطُّرُقُ**[4] ، **وَالطِّيَرَةُ ، مِنَ الْجِبْتِ**[5] »[6] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، رقم الحديث (٤١٣٧) ، وأحمد في مسنده (مسند المدنيين) (١٦٠٤١) وفي (مسند باقي الأنصار) (٢٢١٣٨) .

(٢) **البَتُّ** : كساء غليظ من صُوف أو وَبَرٍ .

(٣) **العيافة** : زجر الطير والتفاؤل بها كما كانت العرب تفعله ، عاف الطير يعيفه : إذا زجره .

(٤) **الطرق** : الضرب بالعصى ، وقيل هو الخط في الرمل ، كما يفعله المنجم لاستخراج الضمير ونحوه .

(٥) **الجبت** : كل ما عبد من دون الله ، وقيل هو الكاهن والشيطان .

(٦) أخرجه **أبو داود** في كتاب الطب ، رقم الحديث (٣٤٠٨) ، **وأحمد** في مسنده (مسند المكيين) (١٥٣٥٠) و(في مسند البصريين) .

وما أخرج أبو داود عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ** »[1] .

وقد اعتادَ العربُ التَّطَيُّرَ ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك مرة بعد أخرى ليُقلِع الناس عن هذه العادة .

وقد اشتهر في جهال العرب أن من قتل ولم يؤخذ بثأره ، خرج من هَامَتِه طائر ، يقال له الهامة ، وهي كالبومة ، فما تزال تستغيث وتهيم على وجهها ، حتى يؤخذ بثأره ، وقد ذكر النبي ﷺ أنه باطل ، فمن زعم أن الإنسان يتمثل بعد موته بحيوان ، فقد كذب على الله ، وكان من الاعتقادات الشائعة في العرب أن بعض الأمراض كالجرب والجذام ، تتعدَّى ، وتنتقل من إنسان إلى آخر ، وهي كلها اعتقادات باطلة ، وشائعات لا أصلَ لها .

وقد اشتهر عندهم أن الأمر الفُلَانيَّ لم يوافق فلاناً ، وأن لم يُوفق فيه ، ولم يكن النجاح حليفه ، وإن كان لليُمنْ والشؤم أصل ، فهما في الدار ، والفرس ، والمرأة ، فقد تكون ميمونةً مباركةً ، وقد تكون تَعِسَةً مشؤومةً ، ولكن لسان النُّبوة لم يحدِّد السبيل إلى معرفة ذلك ، حتى يحكم الإنسان بيمنها وشؤمها ، وما عينه الناس من أمارات لذلك مثل الدار التي يصوِّر الناس على بابها ، وعلى ميزانها فم الأسد ، ومثل أن يكون على جبين الفرس مثل نجم ، وأن تكون المرأة سوداء اللِّسان ، فهي مشؤومة ، فلا أصل له ، بل يجب على المسلمين أن لا يحتفلوا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب ، رقم الحديث (٣٤١١) ، والترمذي في السير (١٥٣٩) ، وابن ماجه في الطب (٣٥٢٨) ، وأحمد في مسنده (المكثرين من الصحابة) (٣٥٠٤) و(٣٩٥٨) و(٣٩٧٨٧) .

بأمثال هذه الترهات ، ويجب عليهم إذا اشتروا بيتاً جديداً ، أو استأجروه أو ظفروا بجواد ، أو تزوَّجوا عقيلة أو جارية ، أن يدعوا الله أن يقدر فيها الخير ، ويبارك فيها ، ويتعوذوا بالله من شرها ، وشر ماجبلت عليه ، ولا يشغلوا أنفسهم بالحكم على أمور قد مضت فيقولوا وَافَقَنا الأمرُ الفلاني ، ولم يوافقنا الأمر الفلاني .

أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **لَا عَدْوَى**[1] **وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفْرَ** »[2] .

وقد اشتهر في الجهال أن الذي أُصيب بالنهامة فيأكل ولا يشبع ، ويُسميه الأطباء بجوع الكلب ، والعامة بجوع البقر ، فقد دخل في بطنه عفريت أو شيطان يأكل ما يتناوله الإنسان فلا يشبع ، وكانوا يُسمونه

---

(١) وردت أحاديث بنفي العدوى كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ، ووردت أحاديث أخرى في إثباتها ، ومنها « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وكثرت أقوال العلماء في ذلك والمرجح حمل الخطاب بالنفي والإثبات على حالتين مختلفتين فحيث جاء « لا عدوى » كان المخاطب بذلك من قوي يقينه وصح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى فعلى هذا يحمل حديث جابر في الأكل مع المجذوم كما سيأتي في متن الكتاب وسائر ما ورد من جنسه ، وحيث جاء « فر من المجذوم » كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى فأريد بذلك من أرباب اعتقاد العدوى ، وقد فعل ﷺ كلا الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين ، وقال بعضهم : إن المراد بالنفي أن شيئاً لا يعدي بطبعه نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده بل بإجراء الله تعالى العادة في التعدي ، انتهى مقتبساً من « **لا مع الداري على جامع البخاري** » للمحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي .

(٢) أخرجه **البخاري** في كتاب الطب ، رقم الحديث (٥٢٧٨) و(٥٢٩٩) و(٥٣١٣) و(٥٣١٦) و(٥٣٢٨) و(٥٣٣٠) ، **ومسلم** في السلام (٤١١٦) ، **وأبو داود** في الطب (٣٣٨١) و(٣٤١٢) و(٣٤١٣) ، **وابن ماجة** في الطب (٣٤٩٨) و(٣٥٢٦) و(٣٥٣١) ، **وأحمد** في مسنده (باقي مسند المكثرين) (٧٣٠٠) و(٧٣٠١) .

بصفر[1] ، وهو الذي جاء نفيه في هذا الحديث .

ومعنى ذلك أن ما يعتقده الناس في بعض الأمراض أنها من تأثير الشياطين ، والعفاريت ، وأنها من تصرفاتهم ، باطل لا أصل له ، مثل ما ذكرنا عن مرض الجدري ، وغيره من الأمراض التي يربطها المشركون في الهند ببعض الآلهة ، والقوى المتصرفة في العالم زعموا .

وقد اشتهر في الجهال أن شهر صفر نحس ، يجب أن يكفَّ الناس فيه عن أعمال ذات قيمة وخطر ، مثل الزواج والأسفار ، والتجارات ، والمعاملات[2] ، ويدخل في ذلك ما يعتقده جهال الهند أن الأيام الثلاثة عشر الأولى من شهر صفر مشؤومة نحسة بصفة خاصة ، ينزل فيها البلاء ، ويُسمُّونَها بـ « تَيْرَه تَيْزِي »[3] فتفسد الأعمال وتحبط المساعي ، وكذلك يخصصون بعض الأيام من الشهر بالنحس ، فيتوقفون عن مباشرة بعض الأعمال المهمة فيها ، بل يجب أن يكون جل الاعتماد على الله تعالى ، والإيمان به هو الضار النافع ، والمعطي المانع ، والمؤثر الحقيقي في الأشياء .

وقد أخرج ابنُ ماجة عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ

---

(١) قال القسطلاني في شرح البخاري : وهو فيما قيل : دابة تهيج عند الجوع ، وربما قتلت صاحبها ، وكانوا يعتقدون أنها أعدى من الجرب ، وهذا ذكره مسلم عن جابر بن عبد الله في حديثه المروي عنده فتعين المصير إليه ، (انظر : الجزء الثامن ، صفحة : ٣١٨) .

(٢) قال البيضاوي في شرح « ولا صفر » : هو نفي لما يتوهم أن شهر صفر يكثر فيه الدواهي (شرح البخاري للقسطلاني (الجزء الثامن ، صفحة : ٣١٨) ، وفي « **مجمع بحار الأنوار** » للفتني (الجزء الثاني ، صفحة : ٢٥١) : وقيل هو الشهر المعروف ، زعموا أن فيه يكثر الدواهي والفتن ، فنفاه الشارع .

(٣) « تَيْرَه » : الأيام الثلاثة عشر الحادة ، و« تيز » معناه « الحاد الشديد » .

مَجْذُوْمٍ فَوَضَعَهَا مَعَهُ فِي القَصْعَةِ ، فَقَالَ : « **كُلْ ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ** »(1) .

كُلُّ كلمة تدلُّ على الجهل بالله وإساءة الأدب معه لا يحلُّ السكوت عليها :

أخرج أبو داود عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَى رَسُوْلَ اللهِ ﷺ أَعْرَابيٌّ فقَالَ : جَهِدَتِ الأَنْفُسُ ، وَجَاعَ العِيَالُ ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ ، وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ ، فَقَالَ النَّبِي ﷺ : « **سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ** » فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَى عُرِفَ ذلكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، ثُمَ قَالَ : « **وَيْحَكَ ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيْحَكَ أَتَدْرِيْ مَا اللهُ ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ هَكَذَا** ، وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلُ القُبَّةِ عَلَيْهِ ، **وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيْطُ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ** »(2) .

وقد عَلِمْنَا من هذا الحديث شدَّة استنكار النبي ﷺ للأعرابي الذي قال : إنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، وكيف فزع [ﷺ] لذلك ، واستشعر الخشية وهيبة الله ، وجعل يسبِّح الله ويكثر من التسبيح والتنزيه ، وتغيرت وجوه الناس من الهيبة والدهشة ، وأوضح أن من يستشفع به على أحد يكون عادة أحطَّ شأناً من الذي يشفع عنده ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلا يستشفع به عند أحد ، وقد جرت

---

(1) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، رقم الحديث (٣٥٣٢) ، وأبو داود في الطب (٣٤٢٤) ، والترمذي أيضاً في باب الأطعمة (١٧٣٩) ولكن بغير لفظ « **كل بسم الله ثقةً بالله وتوكلاً عليه** » .

(2) انفرد به أبو داود وأخرجه في كتاب السنة ، رقم الحديث (٤١٠١) .

العادة أن يستشفع عند مَن يملك الأمر ، ببعض خاصته ، وأهل المنزلة عنده ، فيحقق الرغبة ويعطي السؤال إرضاء لهذا الشفيع ، وتشريفاً لقدره ، والله هو الذي يملك زمام الأمور ، وغيره ضعيف عاجز ، مفتقر إلى الله ، فكيف يستشفع به على أحد من خلقه ، فجميع الأنبياء والأولياء إذا قِيسوا بعظمة الله وجبروته ، كانوا أقلَّ من ذرة ، وإن العرش الذي أحاط بالسماوات والأرضين كالقبة ، ليئط به أطيط الرحل بالراكب ، فليس في طاقة مخلوق أن يشرح عظمته أو أن يتخيلها ، فمن يَجْرَؤُ على أن يتدخل في مملكته ، وينفذ فيها أمره ، إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا يحتاج في ذلك إلى وزير أو مشير ، يصرف أموراً لا يأتي عليها الإحصاء ،ولا يبلغها الاستقصاء في أقلٍّ من طرفة عين ، فكيف يشفع عند غيره ، ومن الذي يستبد بالأمور دُونه ؟ .

يا لِلْعَجَب ! إن محمداً ﷺ الذي شرفه الله على جميع خلقه لا يكاد يسمع من أعرابي جلف كلمة تدل على جهله بالله ، وقصور عقله ، أن يملأه الخوف أو المهابة ، فيفيض في بيان عظمته التي ملأت العالم من العرش إلى الفرش ، وما بال أقوام طالت ألسنتهم ، وحملهم الطيشُ والجرأةُ ، فتشدَّقوا بكلام تكاد السماوات يتفطَّرن منه ، وتنشقُّ الأرض ، وتخِرُّ الجبال هداً ، وبدأوا يتكلمون عن الله جلت عظمته كأن بينه وبينهم دالة أو قرابة ، فقال بعضهم : إني اشتريت ربِّي بدَانِق[1] ، ومنهم من يقول : أنا أكبر من ربِّي بسنتين ، ويقول الثالث : إذا تجلى ربِّي في صورة غير صورة شيخي ، لم أرفع إليه بصري ، ويقول شاعر : إني أحمل قلباً قد جرح بحب محمد ﷺ وعطفه ، فأنا منافس لله تعالى أغارُ

---

(١) الدَّانِق : سُدُسُ الدِّرهم .

منه على حبيبي ، وقال بعضهم : قل عن الله ما شئت متفنِّناً ، واذْهب في الجنون مذاهب ، ولكن إيَّاك إيَّاك أن تدخل في حِمَى محمَّد ، وأن تغلب فيه على أمرك[1] ، ويقول بعضهم : إن الحقيقة المحمدية أفضل من الحقيقة الإلهية ، أعاذَنا الله عن أمثال هذه الشطحات ، والافتراءات ، وقد أحسن شاعر فارسي إذ قال : نسأل الله التوفيق للأدب ، فإن قليل الأدب بعيدٌ عن فضل الله .

وقد اعتاد بعض الناس إذا عرضت لهم حاجة ، أو ألمَّت بهم ملمَّة ، أن يقرأوا وِرد « يا الشيخ عبد القادر الجيلاني[2] شيئاً لله »[3]

---

(١) الأقاويل التي نقلها المؤلف ، مقتبسة عن كلام [الشعراء] الغلاة في مدح الرسول ﷺ ، والتعبير عن عواطفهم ، وقد اشتهر بعضها كالأمثال السائرة في الأدب الهندي والفارسي [م] .

(٢) هو مؤسس الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد المتصوفين ، وُلِد في « جيلان » (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوُّف فيها ، وبرع في أساليب الوعظ ، وتفقه ، وسمع الحديث ، وقرأ الأدب ، واشتهر ، وتصدر للإفتاء والتدريس في بغداد سنة ٥٢٨هـ ، وتوفي بها سنة ٥٦١هـ ، ومن آثاره : « **الغنية لطالب الفيوضات الربانية** » و « **فتوح الغيب** » .

(٣) ذهب أكثر فقهاء المذاهب ومحقِّقو الصوفية إلى عدم إباحة هذا الورد ، ولهم في ذلك مقالات وفتاوى ، نقتصر هنا على ما كتبه فخر المتأخرين الإمام عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي (متوفى سنة ١٣٠٤هـ) صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة ، جواباً على استفتاء ورده عن هذا الورد ، يقول رحمه الله :
« إن الإحتراز عن مثل هذا الورد لازم ، **أولًا** : لأن هذا الورد متضمن كلمة « شيئاً لله » وقد حكم بعض الفقهاء بكفر من قاله ، **وثانياً** : لأن هذا الورد يتضمن نداء الأموات من أمكنة بعيدة ، لم يثبت شرعاً أن الأولياء لهم قدرة على سماع النداء من أمكنة بعيدة ، إنما ثبت سماع الأموات لتحية من يزور قبورهم ، ومن اعتقد أن غير الله سبحانه وتعالى حاضر وناظر ، وعالم للخفي والجلي في كل وقت وفي كل آن ، فقد أشرك ، والشيخ عبد القادر وإن كانت مناقبه وفضائله قد جاوزت العد والإحصاء ، إلا أنه لم يثبت أنه كان قادراً على سماع الاستغاثة والنداء من أمكنة بعيدة ، وعلى إغاثة هؤلاء المستغيثين ، واعتقاد أنه رحمه الله كان يعلم أحوال مريديه في كل وقت ، ويسمع نداءهم ، من عقائد الشرك ، والله =

في عدد مخصوص ، ومدة مخصوصة ، وَدَلَّ هذا الحديثُ على كراهة هذا التعبير وشناعته ، فإنه سؤال للشيخ عبد القادر الجيلاني ، وتوسل بالله تعالى إليه ، والعكس أصح ، فيجوز التوسل بدعاء الشيخ إلى الله ، لا التوسل بالله إليه .

والحاصل أنه لا يجوز التلفظ بكلمة تشمُّ منها رائحة الشرك ، أو إساءة الأدب مع الله فإن الله هو المتعالي ، الغني ، القادر ، الملك الجبَّار ، لا يبالي بأحد ، إذا شاء بطش على شيء دقَّ وصغر ، وإذا شاء عفا عن كبير ولو كان مثل جبل ، ولا يصح أن يتكلم الإنسان بلفظ ظاهره إساءة الأدب ، وباطنه الإجلال والتعظيم ، ويقول المتكلم ، تكلمتُ بالكلمة الفلانية وإنما أقصد غيرها ، فإن الألغاز والمعميات لها مجالات كثيرة ، وهي لا تليق بالله تعالى ، ولا نعرف عاقلاً يهزأ بملكه أو بأبيه ، أو يستعمل معهما الصنائع البديعية ، والكنايات الأدبية ، التي اخترعها الأدباء ، بل يكون كلامه واضحاً يصدر عن وعي ويدل على أدب ، إن مجال هذه الأساليب الأدبية هي مجالس الإخوان والنوادي الأدبية .

= أعلم ، انتهى مختصرا . (انظر : **مجموع فتاوى الإمام عبد الحي اللكنوي** ، الجزء الأول ، صفحة : ٢٦٤) .

وليت شعري ما ألجأ الناس إلى ذلك ، والله أقرب من كل قريب ، وأرحم من كل رحيم ، وهو القائل : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٨٦] .

والقائل : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [سورة النمل ، الآية : ٦٢] .

وقد جاء في وصية الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني نفسه ، لابنه الشيخ عبد الوهاب [يقول] : « وكُلِ الحوائج كُلَّها إلى الله عز وجل واطلبها منه ، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه ، التوحيد ، التوحيد ، التوحيد . (**مجالس الفتح الرباني** ، صفحة : ٦٦٥) ، وخطبه في فتوح الغيب وفي الفتح الرباني ، مليئة بهذه الوصايا والزجر والتوبيخ على الاستعانة بغير الله كما مر بعض القول [م] .

الحثُّ على إظهار شعائر التوحيد في الأسماء والتحذير من الكلام الموهم :

أخرج مسلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُم إِلى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ** »[1] .

ويدلُّ هذا الحديثُ على أن أَحبَّ الأسماء إلى الله ما دلَّتْ دلالةً واضحةً على عبودية العبد وذُلِّه ، وعجزه أمام الله ، وما كانت شعاراً وعلماً للتوحيد ، ومنها الأسماء التي ذكرت في هذا الحديث كنموذج ، ويدخل فيها أسماء أخرى كعبد القدوس ، وعبد الجليل ، وعبد الخالق ، وهِبة الله ، وعطاء الله ، وجاد المولى وغيره[2] .

أخرج أبو داود والنَّسائي عَنْ شُرَيْح بْنِ هَانِيء عَنْ أَبِيْهِ ، أَنَّهُ لمَّا وَفَدَ إِلى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُم يُكَنُّوْنَهُ بِأَبِيْ الحَكَم ، فَدَعَاهُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : « **إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الحُكْم فَلِمَ تُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ** »[3] .

وقد دلَّ هذا الحديث على أن الكلمة التي لا تليق إلا بالله تعالى ، والصفة التي هي خاصة به ، لا يجوز أن يُوصف بها غيره ، كـ « ملك الملوك » و « ملك العالم » و « يفعل ما يشاء » و « أحكم الحاكمين »

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأدب ، رقم الحديث (٣٩٧٥) ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٩) و(٢٧٦٠) ، وأبو داود في الأدب (٤٢٩٨) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٨) ، وأحمد في مسنده (المكثرين من الصحابة) (٤٥٤٤) و(٥٨٤٨) ، والدارمي في الاستئذان (٢٥٩٥) .

(٢) ذكر المؤلف هنا أسماء هندية ترجمتها بالعربية كما ذكرنا ، والمقصود منها الأسماء التي أُضيفت إلى الله ، خصوصاً الأسماء الحسنى التي لا تطلق على غير الله [م] .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، رقم الحديث (٤٣٠٤) ، والنسائي في آداب القضاء (٥٢٩٢) .

و « الحكيم المطلق » و « أغنى الأغنياء »[1] .

ويؤيِّده ما أخرج في « شرح السُّنة »[2] **عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِي ﷺ قَالَ : « لَا تَقُوْلُوْا مَا شَاءَ اللهُ ، وَشَاءَ فُلَانٌ ، وَقُوْلُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ » .**

فقد جاء فيه تحريم إشراك مخلوق في فعل ما يختص بالله تعالى ووصفه بصفة لا تليق إلا بالله ، مهما بلغ هذا المخلوق من جلالة الشأن وقرب المكان ، لأن الله وحده هو يملك هذا العالم ويتصرَّف فيه بما شاء ، لا يشاركه في ذلك الرسولُ ، لأن الله وحده يعلم الغيب ، أما إذا سُئل أحد عن شيء في الدين ، فلا بأسَ أن يقول : الله ورسوله أعلم ، أو

---

(١) وقد روى التاريخ من مبالغة الشعراء والندماء ، وأهل الملق والنفاق في تلقيب ملوك عصرهم وأمرائه بألقاب وإطرائهم لهم ، ما يحرمه الشرع ، ويمجه الذوق السليم ، وقد لقب هؤلاء الملوك أنفسهم في بعض الأحيان بألقاب تدل على قلة علمهم وجراءتهم على الله ، وغرورهم بالملك الزائل ، والسلطان الراحل .
وما أضفى الغلاة من المحبين والمعتقدين على مشايخهم ، وعلى الأولياء والصالحين من ألقاب ونعوت ، أدهى وأمر .
ولم يزل العلماء الغيارى على الدين ، وأعلام هذه الأمة ينكرون على هؤلاء المبالغين المتملقين ، ومما يستطرف في هذا الباب ، ما نقله المؤرخون عن سلطان العلماء شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، أنه لما توفى الخليفة ببغداد أيام الملك الصالح ، عمل الملك له عزاء ، جمع فيه الأكابر والأعيان ، والقراء والشعراء ، فأنشد بعض الشعراء في مرثيته :

مات من كان بعض أجناده الموت ومن كان يحتسبه القضاء

فأنكر عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى ، وأمر بتأديبه وحبسه ، وأقام بعد التعزير في الحبس زماناً طويلاً ، ثم استتابه بعد شفاعته الأمراء والرؤساء فيه ، وأمره أن ينظم قصيدة يثني فيها على الله تعالى كفارة لما تضمنه شعره من التعرض للقضاء . (انظر : الإبداع في مضار الابتداع ، للشيخ علي محفوظ ص١٢٥) [م] .

(٢) في كتاب الاستئذان ، رقم الحديث (٣٣٩٠) ، وأبو داود في كتاب الأدب (٤٣٢٨) ، والنَّسائي في السُّنن الكُبرى، الجزء السادس، صفحة (٢٤٥)، (١٠٨٢١)، وأحمد في مسنده (باقي مسند الأنصار) (٢٢١٧٩) و(٢٢٢٥٧) و(٢٢٢٩٢) .

يقول : إن الله ورسوله أمر بكذا ، لأن الله قد أطلعَ رسوله على أمور الدين ، والله أمر عباده بطاعته .

الحلف بغير الله إشراك بالله :

أخرج الترمذي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ : « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ** »[1] .

وأخرجَ مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ سَمُرَةَ [رضي الله عنه] قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوْا بِآبَائِكُمْ ، مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ** »[2] .

أخرج الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِي ﷺ ، قَالَ : « **مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى ، فَلْيَقُلْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ** »[3] .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب النذور والأيمان، رقم الحديث (١٤٥٥) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه **البخاري** في الشهادات ، رقم الحديث (٢٤٨٢) وفي المناقب (٣٥٤٩) وفي الأدب (٥٦٤٣) وفي الأيمان والنذور (٦١٥٥) و(٦١٥٠٦) و(٦١٥٧) وفي التوحيد (٦٨٥٢) ، **ومسلم** في الأيمان (٣١٠٦) ، **والترمذي** في النذور والأيمان (١٤٥٣) و(١٤٥٤) و(١٤٥٥) ، **والنسائي** في الأيمان والنذور (٣٧٠٤) و(٣٧٠٥) و(٣٧٠٦) و(٣٧٠٨) ، **وابن ماجه** في الكفارات (٢٠٨٥) و(٢٠٩٢)، **وأحمد** في مسنده (مسند العشرة المبشرين بالجنة) (١٠٧) و(١١١) و(٢٠٩) و(٢٣٣) و(٢٧٥) و(٣١١) وفي مسند المكثرين من الصحابة (٤٢٩٤) و(٤٣٢٠) و(٤٣٦٥) و(٤٤٣٨)، **ومالك** في الموطا في النذور والأيمان (١٠٦٢) **والدارمي** في النذور والأيمان (٢٢٥٣).

(٣) أخرجه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن رقم الحديث (٤٤٨٢) وفي كتاب الأدب (٥٦٤٢) وفي كتاب الأستئذان (٥٨٢٦) وفي كتاب الأيمان والنذور (٦١٥٩) ، **والترمذي** في كتاب النذور والأيمان (١٤٦٥) والنسائي في كتاب الأيمان والنذور (٣٧١٥) ، **وأبو داود** في كتاب الأيمان والنذور (٢٨٢٦) ، **وابن ماجه** في كتاب الكفارات (٢٠٨٧) ، **وأحمد** في مسنده (باقي مسند المكثرين) (٧٧٤١) .

وقد دلَّتْ هذه الأحاديثُ على أن الحلف يضر بالإيمان والعقيدة ، فإذا صدر هذا من مُسلم ، فليقل لا إله إلا الله .

لا يجوز النَّذْرُ لغير الله ولا الذِّبح في مكان كان فيه وَثَنٌ أو عِيْد من أعياد الجاهلية :

أخرج أبو داود عَنْ ثَابِت بْنِ ضَحَّاك [رضي الله عنه] ، قَالَ : نَذَرَ رَجُلٌ عَهِدَ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إبلاً بِبَوَّانَةِ ، فَأَتَى رَسُوْلَ اللهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **هَلْ كَانَ فِيْهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ** ؟ قَالُوْا : لَا ، قَالَ : **كَانَ فِيْها عِيْدٌ مِنْ أَعْيَادِهِم** ؟ قَالُوْا : لَا ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : **أَوْفِ بِنَذْرِكَ**[1] ، **فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ** »[2] .

وقد دلَّ هذا الحديثُ على تحريم النذر لغير الله ، فلا يحل هذا النذر ابتداء ، فإن أخطأ أحد لجهله للدين ، فلا وفاء عليه ، ولا يجوز التمادي في خطأ ، أو الإلحاح والتشبث بذنب ، بل هو ذنب أكبر ، وقد دلَّ الحديث كذلك على أنه لا يجوز سوق دابة تذبح لله إلى مكان تقرب فيه القرابين لغير الله ، أو يعبد فيه غير الله ، ويجتمع الناس هناك على شرك وإن صَحَّت النيَّةُ وصلحت العقيدة .

النهي عن الإفراط والتفريط في تعظيم النَّبي ﷺ :

أخرج أبو داود عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : أَتَيْتُ

---

(١) **النذر** : إلزام النفس بفعل تقرُّباً وطاعةً .

(٢) انفرد به أبو داود ، أخرجه في كتاب الأيمان والنذور ، رقم الحديث (٢٨٨١) .

الحِيْرَةَ ، فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُوْنَ لِمَرْزُبَانٍ[1] لَهُم ، فَقُلْتُ : لَرَسُوْلِ اللهِ ﷺ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ فَأَتَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : إِنِي أَتَيْتُ الحِيْرَةَ ، فَرَأَيْتُهُم يَسْجُدُوْنَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُم ، فَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ ، فَقَالَ لِي : « **أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ** » فَقُلْتُ : لَا ، فَقَالَ : **فَلَا تَفْعَلُوْا** »[2] .

وقد نبّه رسول الله ﷺ قيس بن سعد رضي الله عنه ، على أن من كان مآله الموت ، ومصيره إلى القبر ، فيموت فيُدفن ، لا يستحق السجدة ، إن السجود للحيِّ الدائم الذي لا يموت ، وعُرف من هذا أنه لا يجوز السجود لحيٍّ ولا لميِّت ، ولا لقبر ، ولا لنصب ، فإن كل نفس ذائقة الموت ، والحي لا يتجرد عن البشرية وخصائصها ، فكيف يصير إلٰهاً يسجد له إذا فارق الحياة ، فالعبد عبد حياً وميتاً .

التحذير عن الكلمات المُوْهِمَة للشرك :

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **لَا يَقُوْلَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي ، كُلُّكُمْ عَبِيْدُ اللهِ ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ ، وَلَا يَقُلِ العَبْدُ لِسَيِّدِهِ مَوْلَايَ ، فَإِنَّ مَوْلَاكُم اللهُ** »[3] .

دلَّ هذا الحديثُ على أنه لا يصح أن يخاطب السيد عبده فيقول : يا عبدي ، وأن يضيف ذلك إلى نفسه ، وإن كان في الحقيقة رفيقاً له ، أو

---

(١) المَرْزُبَان : الفارس الشجاع ، وله منزلة عند دون الملك .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح ، رقم الحديث (١٨٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ، رقم الحديث (٤١٧٧) ، والبخاري في العتق (٢٣٦٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٣٣٤) ، وأحمد في مسنده (باقي مسند المكثرين) (٧٨٥٠) و(٩١٠٥) و(٩٣٥٢) و(٩٥٨٥) و(٩٨٩١) و(٩٩٧٣) و(١٠٠٣٢) و(١٠١٩٦) .

أن يقول أحد : فلان عبد لفلان ، أو أن يقول العبد لسيده ، مولاي ، وهذا فيمن كانوا عبيداً وسادة ، فكيف بمن يدعي العبودية زُوراً ، ويلقب نفسه بعبد النبي ، وعبد علي ، وعبد صاحب الجلالة ، والعبد الخاص ، أما السخاء بألقاب « رَبُّ الأرباب » ، والجواد المطلق ، فلا محل له البتة ، ولا مبرر ، وهو غاية في إساءة الأدب مع الله ، وما تعوَّده بعض الناس من أن يقولوا لبعض الناس : أنت تملك حياتي ومالي ، ونحن في تصرفك ، تفعل ما تشاء فهو كَذِبٌ ومَيْن[1] ، وشرك .

النَّهْيُ عن تقليد النَّصَارى في إطرائهم لنبِيِّهم ، وغُلُوِّهم فيه :

أخرج الشيخان عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **لَا تُطْرُوْنِي[2] كَما أَطرتِ النَّصَارَى عِيْسَى بْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّما أَنَا عَبْدُهُ فَقُوْلُوْا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلِهِ** »[3] .

ومقصود الحديث أن منصب الرسالة يتضمن جميع المحاسن ، والفضائل التي أكرمني الله بها ، فإذا أطلقت على هذه الصفة ، وقيل : « رسول الله » فلا مزيد على ذلك ، فإن الرسالة هي الغاية القصوى التي يصل إليها بشر ، وكل ما عدا ذلك من المنازل فهو دونها ، لذلك قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **فَقُوْلُوا عَبْدُ اللهِ وَ رَسُوْلِهِ** » .

ولكن البشر إذا أكرم بالرسالة ، لا يتجرد عن البشرية ، وحسبه فخراً

---

(١) المَيْن : الكذب .

(٢) الإطراء : مجاوزة الحدِّ في المدح .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم الحديث (٣١٨٩) ، وأحمد في مسنده (مسند العشرة المبشرين بالجنة) (١٤٩) ، (١٥٩) ، (٣١٣) .

أن يكون عبداً لله تعالى ، لا يتلبس بذلك بالألوهية ، فلا يحل القول بذلك لعبد من عباد الله ، وكفر النصارى بهذا الاعتقاد في المسيح عليه الصَّلاة والسَّلام ، وبعدوا عن الله تعالى ، ولذلك نهى رسول الله ﷺ أمته عن تقليد النصارى في إطرائهم لنبيهم وغلوهم فيه ، فاستحقوا غضب الله ولعنه .

ولكن الغُلاة من هذه الأمة ، مع الأسف ، لم يمتثلوا أمر النبي ﷺ ، وقلَّدوا النصارى في أقاويلهم ، وما زاد النصارى على أن قالوا : إن الله سبحانه وتعالى قد ظهر في صورة عيسى بن مريم وكسوته ، فهو بشر من جهة وإله من جهة أخرى .

وقد تطرف بعض من لا يخشون الله فنسبوا ذلك إلى النبي ﷺ فزعموا أنه قال : « أنا أَحْمَدُ بلا مِيْم » وقد زَوَّرُوا عبارة عربية طويلة جمعوا فيها خرافات كثيرة ، وسمَّوها بخطبة الافتخار وعزوها إلى سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، خذل الله الكذَّابين وفضحهم ، وكما أن النصارى يزعمون أن المسيح عليه السلام يملك الدنيا والآخرة ، فيدبر الأمر كما يشاء ، فمن آمن به ، وتضرع إليه لم يحتج إلى شيء من العبودية والعبادة ، وما ضره ذنب ، ولا فرق له بين حلال وحرام ، فيكون لله سائبة حبلها على غاربها ، ويخلصه عيسى بن مريم في الآخرة بشفاعته عن النار وعن العذاب .

ومثل هذا يعتقد بعض الجهلة المسلمين في النبي ﷺ وتنزلوا ، فاعتقدوا في أئمة أهل البيت ، وأولياء الأمة ، بل وفي المشايخ مثل هذا الاعتقاد ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

أخرج أبو داود عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيْر ، قَالَ : اِنْطَلَقْتُ فِي

وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إلى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ، فَقُلْنَا : أَنْتَ سَيِّدُنَا ، فَقَالَ : **السيِّد اللهُ** ، فَقُلْنَا : وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً ، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً[1] ، فَقَالَ : **قُوْلُوْا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بِبَعْضِ قَوْلِكُمْ فَلَا يَجْتَرِئَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**[2] .

وقد أمر النبي ﷺ في هذا الحديث بالاقتصاد والتوسُّط ، وتحري الدقة ، في مدح من يعتقد فيهم الفضل ، وأن لا يتخطى في ذلك حدود البشرية فيلحقه بالله وأن لا يكون كفرس جَمُوْحٍ لا يملكه فارس ، ولا يضبطه زمام ، فيسيء بذلك الأدب مع الله ويتورط فيما لا تحمد عقباه .

وليعلم أن « السيِّد » له معنيان ، فقد يراد به السيد الذي يملك الأمر بالإطلاق ، ولا يخضع لأحد ، وهذا يختص بالله تعالى ، فلا سيد بهذا المعنى إلا الله ، وقد يراد به رئيس قبيلة أو عمدة قرية ، أو مَرْزُبَان ، وبهذا المعنى كل نبي سيد في أمته ، وكل إمام مقدم على أتباعه ، وكل مجتهد قائد لمن يقتدي به ، بأنهم يقومون بامتثال أوامر الله تعالى في نفوسهم ، ثم يعلمونها من دونهم ، وهكذا ، فإن نبيَّنا ﷺ هو سيد العالمين ، ومنزلته عند الله فوق كل منزلة ، وهو أشد الناس امتثالاً لأوامر الله تعالى ، والخلق كلهم عيال عليه ، في الاهتداء إلى الله ، ومعرفة أحكامه ومرضَياته ، وبهذا المعنى يصح أن نسمِّيه بسيد ، بل يجب هذا الاعتقاد ، أما بالمعنى الأول وهو السيطرة على العالم ، والتصرف بمطلق الإرادة ، فلا يصح ولا يجوز ، فإنه لا يتصرف في أَضْعَف مخلوق .

---

(١) **الطول** : الغنى والقدرة .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، رقم الحديث (٤١٧٢) ، وأحمد في مسنده (مسند المدنيين) (١٥٧٢١) .

النَّهْي عن تعظيم صُوَر الصالحين :

أخرج البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا اِشْتَرَتْ نَمْرَقَةً فِيْهَا تَصَاوِيْرٌ ، فَلَمَّا رَآهَا رَسُوْلُ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الْبَابِ وَلَمْ يَدْخُلْ فَعَرَفَتْ فِي وَجْهِهِ الكَرَاهَةَ ، قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ، أَتُوْبُ إِلَىَ اللهِ ، وإِلَى رَسُوْلِهِ ، مَاذَا أَذْنَبْتُ ؟ فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **مَا بَالُ هَذِهِ النَّمرَقَة** »[1] ، قَالَتْ : اِشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتُوَسِّدَهَا ، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ أَصْحَاب هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ ،** وَقَالَ : **إِنَّ البَيْتَ الَّذِي فِيْهِ الصُّوَرُ لَا تَدْخُلُهُ المَلاَئِكَةُ** »[2] .

وقد دلَّ هذا الحديثُ على أن ما يفعله بعض الجهال من تعظيم صور للأنبياء أو الأئمة ، أو الأولياء ، أو المشايخ عندهم ليتبركوا بها ضلال محض ، وإغراق في الشرك ، والنبي والملائكة منه براء .

بل يجب على المسلم أن يبعدها عن البيت ، ويعتقد نجاستها ، فينال بذلك رضا الله والرسول ﷺ وتدخل الملائكة هذا البيت ، وتَحِلُّ البركة بدخولها .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ ، أَوْ قَتَلَ نبيّاً ، وَإِمَامُ ضَلاَلَةٍ ومُمَثِّلٌ مِنْ المُمَثِّلِينَ** »[3] .

---

(١) النَمرَقَة : الوِسَادَةُ التي يُجْلَسُ عَلَيْهَا .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، رقم الحديث (٤٧٨٣) ، ومسلم في اللباس والزينة (٣٩٤١) ، وأحمد في مسنده (مسند الأنصار) (٢٤٨٩٦) ، ومالك في الموطا في الاستئذان (١٨٥٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (في مسند المكثرين من الصحابة) رقم الحديث (٣٦٧٤) .

وبذلك تعرف شناعة عمل التصوير ، فإن فاعله قد قُرن في هذا الحديث بقاتل نبي .

أخرج الشيخان عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ : « **قَالَ اللهُ تَعَالىٰ : وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِيْ ، فَلْيَخْلُقُوْا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوْا حَبَّةً أَوْ شَعِيْرَةً** »[1] .

تَأَذِّي النَّبِيِّ ﷺ بالغُلُوِّ في شخصه ، والزيادة على ما وَصَفَه الله به :

وأخرج رَزِين عَنْ أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ : « **أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرفَعُوْنِيْ فَوْقَ مَنْزِلَتِيْ التي أَنْزَلَنِيْ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ** »[2] .

ومعنى ذلك أن النبي ﷺ لا يَسُرُّه أن يبالغ فيه الناس ويطروه شأن الأمراء والملوك الذين يحبون المبالغة والملق ، فإنهم لا شأن لهم بدين هؤلاء الندماء والشعراء ، واعتقادهم ، فلا عليهم إذا فسدت عقيدتهم ، أو بَاؤوا بالإثم ، أما النبي ﷺ فقد كان مربِّياً عطوفاً على أمته :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] ، وكانت عنايته

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، رقم الحديث (٧٠٠٤) ، ومسلم في اللباس والزينة (٣٩٤٧) ، وأحمد في مسنده (مسند المكثرين) (٦٨٦٩) و(٧٢٠٩) و(٨٧١٦) و(٩٤٤٨) و(١٠٣٩٩) .

(٢) رواه البخاري في التاريخ الصغير ، رقم الحديث (٢٢) ، والنسائي في السنن الكبرى ، رقم الحديث (١٠٠٧٧) ، وأحمد في مسنده (١٢٥٧٣) و(١٣٥٥٣) و(١٣٦٢١) .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

مصروفة إلى إصلاح عقيدتهم وتقويم دينهم .

وقد جرت العادة أن المُحبِّين يبالغون في مدح من يحبُّونهم ، ويسرفون في ذلك لينالوا رِضاهم ، ويُدخلوا السُّرور عليهم ، وقد عرف النبيُّ ﷺ أن أمته من أشد الأمم حباً لنبيِّها ، وامتناناً له ، ومعرفة لفضله ، وقد خاف أن تبالغ أمَّته في مدحه بدافع هذا الحب فتتخطى الحدود وتسيء الأدب مع الله أحياناً ، فيتلف بذلك دينها وتهلك ، وتُعادي النبيَّ وتؤذيه ، لذلك صرح بأنه لا يرضى بالمبالغة والغلو ، وأن اسمه ما سمَّاه به أهله ، وناداه به ربُّه ، ليس له من أسماء الله شيء ، وأنه وُلِدَ كما يُوْلَدُ سائر الناس من أب وأم ، وحسبه فخراً أن يكون عبداً لله ، ولكنه يمتاز عن سائر عباد الله بالرسالة ، والناس عنها في جهل وغفلة ، لا سبيل لهم إليها إلا عن طريقه ، فليرجعوا إليه ويلوذوا به في تعلُّم دين الله ، وفي معرفة أحكامه وشرائعه .

اللَّهم فصلِّ وسلِّم ألف صلاة وألف تسليم على هذا النَّبِيِّ الرحيم الكريم ، وأجِزْهُ عنا على جهاده في تعليم الدين ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، أفضل ما تجزي نبياً عن أمته ، وكَافِئْهُ على ذلك أحسن مكافأة ، فأنت تقدرُ على ذلك ، ولا نقدر ، وتعلم ما لا يبلغه علمنا ، ولا يستوفيه شكرنا .

والحمد لله الذي هَدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بالحقِّ .

•••

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام

* * *

أهمُّ مصادر ومراجع التحقيق

١ ـ **أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكّر الداعية الأديب** : تأليف سيد عبد الماجد الغوري ، دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت ط : ٢ ، عام ١٤٢٠هـ.

٢ـ **إذا هبَّت ريح الإيمان** : العلامة الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط : ١ ، عام ١٤٢١هـ.

٣ـ **الأضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية ومدارسها الفكرية ومراكزها التعليمية والتربوية في الهند**: أبو الحسن علي الحسني الندوي، المجمع الإسلامي العلمي، لكهنؤ (الهند)، ط : ١ ، عام ١٤١٦هـ.

٤ـ **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (المسمَّى بـ « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر »** : العلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، دار ابن حزم، بيروت، ط : ١، عام ١٤٢٠هـ.

٥ـ **أعلام المحدّثين في الهند في القرن الرابع عشر الهجري ، وآثارهم في الحديث وعلومه**: سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط : ١، عام ١٤٢١هـ .

٦ـ **البريلوية** : للأستاذ نظام عبد الرحمن الندوي ، (وهو رسالة الماجستر، قدَّمها الباحث إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض).

٧ـ **تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند**: مسعود الندوي، دار العروبة، لاهور (باكستان).

٨ ـ **تهذيب الأخلاق**: للعلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ت: سيد عبد الماجد الغوري، دار الفارابي، دمشق، ط : ١ ، عام ١٤٢٣هـ .

٩ـ **التاريخ الصغير** : لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي ، ت : محمود إبراهيم زايد ، دار الوعي ، حلب ، ومكتبة التراث ، القاهرة ، ط : ١ ، عام ١٣٩٧هـ .

١٠ـ **حياة الصحابة**: للعلامة محمد يوسف الكاندهلوي، ت: محمد إلياس الباره بنكوي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط: ٥، عام ١٤٢١هـ .

١١ـ **دار العلوم ديوبند: مدرسة فكرية توجيهية، حركة إصلاحية دعوية، مؤسسة تعليمية تربوية**: محمد عبيد الله الأسعدي القاسمي، أكاديمية شيخ الهند، ديوبند (الهند). ط: ١ عام ١٤٢٠هـ.
١٢ـ **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**: أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط: ١، عام ١٤٢٠هـ.
١٣ـ **سنن الترمذي**، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الفكر، دمشق، طبع عام ١٩٨٣م.
١٤ـ **سنن الدارمي**: للإمام الكبير أبي محمّد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهْرام الدارمي، ت: الدكتور محمد مصطفى ديب البُغا، دار القلم، دمشق، ط: ٢، عام ١٤١٧هـ.
١٥ـ **سُنن أبي داود**، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦ـ **السُنن الكبرى**: لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النَّسائي، ت: د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيِّد كسروي حسن، دار الكُتب العلمية، بيروت، ط: ١، عام ١٤١١هـ.
١٧ـ **سنن النَّسائي (الصغرى)**: للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
١٨ـ **سنن ابن ماجه**: للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي ابن ماجه. دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة عام ١٩٧٥م.
١٩ـ **شرح السنة**: لأبي محمَّد الحُسين بن مسعود البغوي، ت: سعيد اللحام، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الفكر، بيروت، ط: ١، عام ١٤١٤هـ.
٢٠ـ **شرح سُنن ابن ماجه**: للسيوطي، وعبد الغني، وفخر الحسن الدهلوي، قديمي كُتب خانه، كراجي (باكستان).
٢١ـ **شعب الإيمان**: لإبي بكر أحمد بن الحُسين البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكُتب العلمية، بيروت، ط: ١، عام ١٤١٠هـ.
٢٢ـ **الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفتُه**: الدكتور يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق، ط: ١، عام ١٤٢٢هـ.
٢٣ـ **صحيح البخاري**: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، ت:

الدكتور مصطفى ديب البُغا، دار ابن كثير ودار اليمامة، دمشق، طبعة عام ١٩٨٧م.
٢٤ـ **صحيح ابن حبَّان**، لمحمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسَّة الرسالة، بيروت، ط: ٢، عام ١٤١٤هـ.
٢٥ـ **صحيح ابن خزيمة**: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري، ت د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة عام ١٣٩٠هـ.
٢٦ـ **صحيح مسلم** للإمام أبي الحُسين مسلم بن الحجَّاج بن مسلم القُشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة عام ١٩٧٢م.
٢٧ـ **العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية**: للعلامة السيِّد أبي الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط: ١، عام ١٤٢٢هـ.
٢٨ـ **المسلمون في الهند**: أبو الحسن علي الحسني الندوي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط: ١، عام ١٤٢٠هـ.
٢٩ـ **مسند ابن الجعد**: لعلي بن الجعد بن عُبيد أبي الحسن علي الجوهري البغدادي، ت: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط: ١، عام ١٤١٠هـ.
٣٠ـ **مسند الإمام أحمد**. المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة عام ١٩٨٥م.
٣١ـ **مسند أبي يعلى**: لأحمد بن علي بن المثنى أبي يعلى الموصلي التميمي، ت: حُسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط: ١، عام ١٤٠٤هـ.
٣٢ـ **مقالات إسلامية في الفكر والدَّعوة**: العلامة الإمام السِّيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، ط: ١، عام ١٤٢٤هـ.
٣٣ـ **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس، ت: خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، بيروت، ط: ١، عام ١٤١٨هـ.
٣٤ـ **نظرات**: مصطفى لطفي المنفلوطي، دار طلاس، دمشق، ط: ١، عام ١٩٩٤م.
٣٥ ـ **النهاية في غريب الحديث**: للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، ت: الطاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناجي، دار الفكر، بيروت، ط: ١، عام ١٤١٨هـ.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

هذا الكتاب

يتضمن : علم التوحيد، وهو خير العلوم وأفضلها .

وثم في غفلة من الأمر تولى قيادة هذه الأمة بعضاً من المفكرين

الذين حدو بالأمة إلى الحضيض، وذلك لابتعادهم عن النبع

الإسلامي الصافي، ولحملهم ألوية ورايات باطلة، وعقائد فاسدة ومتصدعة،

فما على أهل الإسلام ورجالاته ممن ينتمون إلى أهل السنة والجماعة

إلا أن يعملوا على بيان حقيقة التوحيد، وتصفية العقيدة مما عَلِقَ

بها من شوائب الدخن الباطل .

وعلينا أن لانقصر ولانفرط انحيازاً إلى من قاموا كسالى بما أمر الله به،

أو حكّموا الطّاغوت، واستبعدوا حكم الله تحت أية دعوة من دعاوى الجاهلية،

بل نَصِمُ هؤلاء وهؤلاء بما وصَمَهُم الله به كفراً كان أوظلماً أو فسقاً .

ثم البراءة من الطواغيت والأنداد، لأنها دعوة الأنبياء .

نسأل الله حُسن الإتباع ووقانا الله من شر الإبتداع .

الناشر